رحلتى مع القرآن

بدأت رحلتى مع القرآن منذ بواكير العمر وفى سنواته الأولى حيث كانت الكتاتيب بشكلها القديم مازالت موجودة، يجلس الشيخ بين الأطفال، وتبدأ هذه الطريقة فى التعليم الشفهى الذى يرتشف فيه المتعلم من معلمه اللفظ بعد أن يتذوقه ويجريه على روحه ونفسه ثم ينطق به كما سمع ويردد حتى يحفظ. وكنت تسمع دويًا كدوى النحل فى هذه الكتاتيب، وكنت أيضًا تجد السلوكيات التى تخرج من الأطفال تعبر عن سنهم الصغيرة، فهم فى النهاية أطفال فى سن لابد أن تصدر منهم هذه الأفعال التى تجعل الحليم يخرج عن حلمه أحيانًا.

وأول من جلست أمامه لأحفظ القرآن هذا الرجل الذى كان لا يترك المصحف يغادر يديه ولا عينيه ليل نهار فضيلة الشيخ «عبد الرحمن يوسف»، الذى حفظت على يديه أول ما حفظت من القرآن، الأجزاء الأخيرة، ولكن كان حرصه الشديد على أن نحفظ القرآن جعلنا نفلت من يديه ونبتعد عنه شيئًا فشيئًا، إذ كان يريد ونحن فى الإجازة الصيفية التى ننطلق فيها بعد سنة دراسية طويلة أن نترك كل شىء لحفظ القرآن، فكان إذا رأى أحدًا منا يلعب ينظر إليه فى عتب شديد، وإذا جاءه بعد ذلك

عنفه. والرجل كان يفعل ذلك حبًا فى القرآن وأملًا فى أن نحفظه، خاصة وأنه كان شديد التعلق بالقرآن وكان دائمًا ما يخاف أن يفلت منه. ولكنه فى الحقيقة استطاع أن ينجح مع ابنه الذى أصبح طبيبًا بعد ذلك الدكتور «حسن عبد الرحمن» الذى كان مثالًا للتفوق فى جميع المجالات ومنها أنه حفظ القرآن الكريم فى سن صغيرة، وكان ممن يشار إليهم كمثال يُقتدى به حيث أصبح طبيبًا للعيون يجرى الله على يديه شفاء الخلق.

وبعد الشيخ عبد الرحمن تنقلت بين مجموعة ممن حفظت عنهم جزءًا كبيرًا من القرآن، هذا الرجل الطيب الوقور صاحب الصوت الذى كان يستحق أن يكون صوتًا إذاعيًا الشيخ «محمد مرسى» ـ رحمه الله ـ الذى صادقته وقتها وكان يحكى لى حكاياته الجميلة ورحلته فى حفظ القرآن، وأَنْ الذى حفظه القرآن كان عمه الشيخ «عبد الرحمن»، ولكن بعد أن ذاق معه حلاوة الحفظ وذاق أيضًا مع الرجل مرارة المعاملة، ولكنه احتمل كل ذلك من أجل أن يستقر نور القرآن فى قلبه. هذا الرجل حفظت حوالى نصف القرآن على يديه، لكنه لم يكن يهتم بالتجويد ومع ذلك فقد كنت أقرأ قراءة صحيحة.

وبعد قليل كان لقائى بالشيخ «عبد الفتاح شوشة» الذى غزا قلبى بحب حفظ القرآن، حيث كانت جلساتنا معه نوعًا من السياحة العقلية والروحية والخلقية، وكان تحفيظ القرآن عنده رسالة متكاملة فيها حفظ الكلمات وتقصى المعانى والوقوف عند المشاهد القرآنية، والبكاء بين يدى الآيات كان يكمل صورة صاحب الرسالة فى تعليم القرآن الكريم وليس فى تحفيظه فقط. هذا الرجل القرآنى كان يعمل فى البوليس فى رتبة من رتب المعاونين الكتبة، وكان يركب دراجته ويطلق صوته خافتًا لا يسمعه

إلا من اقترب منه، وكان من يراه يظن أنه ينظر إليه ولا يلقى السلام حتى اشتكى الناس فلما نقلت له شكوى الناس قال إننى ساعتها أرى الطريق ووجوه الناس بعيناى أما لسانى وقلبى فمع الله فى قراءة القرآن. وكان جسمه ضعيفًا ولكن عندما أن يقرأ القرآن تشعر كأن صوته شلال هادر من الطهر الخالص الذى يتلبس بالمعنى فيخرج فى خشوع نادر لا تجد له مثيلًا، لدرجة أنه قرأ سورة المائدة كاملة فى ركعتين ذات ليلة بهذا الصوت الذى يتصف بالقوة والخشوع مشعشعًا بالبكاء أحيانًا. وأذكر أول مرة أجلس معه ـ وكنت فى نهاية الإعدادى أو أوائل الثانوى ـ وكنت قد حفظت حوالى نصف القرآن على يد الشيخ «محمد مرسى» وكان قد دخل المسجد وهو ينفض يديه من ماء الوضوء وكبر وصلى ركعتين، فذهبت إليه وجلست أمامه فعجب الرجل فلم يشاهدنى قبل ذلك، فوضع يده على كتفى وربت بهما بابتسامة عطف ثم انشغل عنى لكى أقوم من أمامه بلطف، فقلت له إننى أريد أن أقرأ عليه مما أحفظ، ولأنه كانت سعادته الكبرى عندما يجد أحدًا يحفظ القرآن فانفرجت أسارير وجهه وأبدى شيئًا من العجب فقال إقرأ، فرتلت أول «سورة طه» فطار الر جل فرحًا ونظر لمن جاء من الناس بعد ذلك وكأنه يريد أن يعرف من هذا الولد، هنا دخل أبى ـ رحمه الله ـ فحكى له القصة ومن هذا اليوم كنت تلميذًا نجيبًا لهذا الرجل الذى تعلمت منه القرآن تلاوة وأدبًا ومعانٍ وأخلاقًا، حيث كنا نذهب إليه وبعد أن يرتل كل منا اللوح الخاص به يختم هو بصوته بربع من القرآن يختاره ثم يختار منه بعض الآيات ويفتح مغاليق الروح والنفس لكى نعيش هذا المعنى الذى يصل إليه بفطرته النقية وعقله الواعى ونفسه التقية الورعة. وأذكر أنه ـ رحمه الله ـ رتل مرة آخر سورة هود ووقف بعض الوقفات فيها وخاصة عند هذه الآية:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

ثم بكى الرجل. وتصادف أننى فى هذا الوقت كنت أحفظ سورة هود وكنت قد صححت عليه ربعًا من أولها على أن نرجع إليه بعد ثلاثة أيام لكن لنقرأ عليه ما حفظناه، فجلست أمامه لكى أقرأ عليه الربع فإذا بى أقرؤها عليه كاملة فعجب الرجل، فقلت له وهل بعد الكلام الذى قلته عنها فى اللقاء السابق أتركها، لقد وقعت فى قلبى وما رأيتنى أحفظ سورة من سور القرآن أسهل حفظًا من هذه السورة العظيمة التى قال عنها النبى ﷺ «شيبنى هود وأخواتها». وتعلمت منه التعمق فى معانى القرآن وإشراك الروح بمالها من فيوضات على فهم القرآن، وخاصة عندما يسكن الإخلاص قلب قارئ القرآن ولا يبتغى بقراءته سوى رضا الله سبحانه وتعالى، لذلك بعد هذه السنوات الطوال وجدت نفسى أحن إلى طريقة هذا الرجل فى الوقوف عند معانى القرآن وملازمة الباب حتى يفيض الله بنعمة الفهم التى لا تأتى إلا بما كان عليه هذا الرجل وأمثاله الطيبون.

لذلك هذا غيض من فيض كتبته عندما وقفت عند عتبات رحمة الله الفياضة فى فهم بعض السور والآيات:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾...

عندما تقرأ فى الجزء السابع من القرآن وتتأمل آياته وتتدبر كلماته ومعانيه تجد جيشًا من المعانى وسيلًا من المفاهيم التى تعيد المسلم قارئ القرآن إلى حائط الإيمان القوى محتميًا به ومستندًا إليه. ففى بداية الجزء فى «سورة المائدة» تحذير من اليهود والذين أشركوا والتاريخ شهد بصدق

القرآن، فسواء قبل نزوله أو إلى يومنا هذا وهم على دربهم سائرون فى حيز هزيمتنا وضعفنا.

ثم تأتى هذه الآية التى تشرع لحقيقة إنسانية واجتماعية فى دنيا الناس؛ أن الخبيث لا يمكن أن يعدل الطيب ولا يساويه ولا يطاوله ولا يغالبه، فالطيب ما ينفع الناس والخبيث ما يضرهم ما يقتلهم ما يشردهم ما يستبيحهم.

ثم يأتى هذا الحكم العقلى والمنطقى والشرعى والطبيعى والإنسانى ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾.

ثم تأخذنا الآيات فى هذا الجزء إلى قصة المائدة وجولة مع يقين الأنبياء الكرام والتى انتهت بهذا الدعاء ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ثم يدخل بنا الجزء السابع إلى عالم «سورة الأنعام» لنقف عند هذه الآية التى تنقل إلى الإنسان إشارات لعلم الله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

يبدأ بالغيب، هذا المستتر المخفى الذى ينتظره الإنسان فهذا لايعلمه ولايطلع عليه ولايعلم سره ولايدرك كنهه ولايستطلع أمره إلا واحد ـ سبحانه وتعالى ـ ثم التعبير بكلمة «مَفَاتِحُ» ـ بالجمع ـ فيا أيها الإنسان اعلم أن الغيب مخبوء عند رب كريم فاعمل خيرا تجده مخزونا بالخير فى هذا الغيب، ويعلم كل ما يدب على الأرض منذ أن خلقها ويعلم ما

فى البحر الذى يحيط بالأرض فى أعماقه وسطحه وعلى شواطئه، يعلم الحركات والسكنات، يعلم الخطوات والزفرات والشهقات، ويعلم كل ورقة سقطت أين ومتى وكيف، ويعلم الحبة لايراها أحد فى الدنيا غيره عندما تسكن باطن الأرض ثم يأتيها أمره فتخترق الأرض لتشم عبير الحياة وتصبح ساقًا وأوراقًا وثمارًا لايعلمها إلا الله.

ألا ما أجمل وما أعظم وما أروع اللفظ القرآنى ألا ما أعظم القرآن وما أعظم آياته.

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ ﴾....

ما أن وضعت قدمى فى السيارة التى تقلنى إلى القاهرة حتى أخرجت الموبايل وفتحت المصحف الإليكترونى على الجزء الرابع وبدأت القراءة، وأنا أحب كثيرًا أن تلامس الآيات بنورها الإلهى مقلتى عينى ووالله كأنها لهما شفاء ولروحى دواء ولنفسى رواء.

وبدأت أقرأ فطالعتنى هذه الآيات من «سورة آل عمران» مُشَيَّدة ببناء بلاغى فى غاية الروعة والبيان ومدَعَمة بالنداء تارة وبالأمر تارة وبالبشارة للمؤمنين والزجر للمشركين والكافرين تارة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ

إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾.

فها هو النداء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ...﴾ والأمر المباشر الداعى إلى الالتئام والوحدة والتعاون والتآزر والأخوة بالاعتصام، وما أعظم اللفظ وما أجمله، فهو مخزون بالبلاغة القرآنية لأنه يعنى الوحدة فى ظل الاعتصام، ثم الاعتصام بحبل الله الذى لا يقطع ولا يبلى ولا يزيف ولا يباع ولا يشترى. ثم كلمة ﴿جَمِيعًا﴾ يامن تخاطبون بهذا الدين فى شتى مناحى الأرض أينما كنتم.

ثم يأتى التحذير ممن فرقتهم الأهواء وشتتتهم العوادى والفتن وألقت بهم الشياطين على جانبى الطريق المستقيم ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ....﴾.

وتنتهى الآيات بالسواد يُدهن به وجوه الظالمين المستكبرين الكذابين وبالبياض والألق والفرحة والحبور والسرور يطبع كل هذا على وجوه المؤمنين المتقين الخاشعين المخبتين العدول ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ هذا هو الطريق، الاعتصام والوحدة.

ما أعظم القرآن وما أعظم آياته.

﴿... لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾...

كلما تأهبت لقراءة الجزء العاشر من القرآن ارتسمت فى ذهنى هذه الصورة المتفردة فى التاريخ، التى يقف فيها الاستكبار والطغيان والجهل والغرور أمام باب الغار لكى يسكتوا صوتًا يحيى الإنسانية بعد أن أهانوها بالقهر ويرفع الكرامة بعد أن أذلوها بالسجود لحجر أو لصنم، هذه

الصورة التى صاغها القرآن فى «سورة التوبة» ببلاغة مشخصة مشاهدة معاينة كأنك تراها تشاهدها.. تعاينها.. تعايشها.. وهذه الآيات جاءت بعد عشر سنين من الهجرة وفى غزوة تبوك غزوة العسرة جاءت لتقول إن النصر له أسبابه له عدته له رجاله له مواقفه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾..

تبدأ الآيات موجهة الخطاب إلى الفئة المؤمنة التى أصابها بعض الوهن من وعورة الطريق وصدود الرجال وقلة الزاد وشظف العيش ﴿.. مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ ...﴾ مالكم ماذا حدث، هذا الخطاب المبطن بالتشجيع والتحفيز المبدوء بالعتاب الرقيق الموشى بهذه الصورة لمن لا يستطيع أن يقف على قدميه حتى يقع.

ثم يأتى التحذير فى الآية التى تليها ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ...﴾ لأن سنن الله ليس فيها محاباة ولا مجاملة لأحد حتى ولو كانوا

اتباع رسل، ثم يذكرهم بهذا الموقف بعد أن مر عليه عقد من الزمن أن الله ناصره ومؤيده نصرتم أم لم تنصروا.

ثم يرسم القرآن هذه الصورة التى يقف فيها أصحاب القلوب المقفلة والعقول الموصدة والنفوس الشرهة الخبيثة التى تحالفت مع الشيطان لكى يطفئوا نورًا جاء ليضيء الكون ويغمر الأرواح ويحيى النفوس، لكن أنى لهم وقد أدى صاحب النور ما عليه ولم يترك للفشل طريقًا ليصل إليه وأخذ الأسباب كما يأخذها البشر وعلم أن له إلهًا يؤيد عباده وينصر رسله. وهنا تنطلق منه عبارة الأمن والأمان ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ طريق المصلحين وهدى الحائرين ومرفا المتعبين وآمال المستضعفين ونوال العابدين وسبيل الواصلين ونهج الأولياء المتقين ووعيدًا للطغاة الظالمين المستكبرين.. إن الله معنا

لا تحزن إن الله معنا
ما أعظم القرآن وما أعظم آياته.
﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.

فى الجزء التاسع عشر نقرأ من «سورة الفرقان» هذه الصورة الواضحة الجلية النقية الصافية الضافية لعباد الرحمن، التواضع سمة فيهم والإنفاق عطاء واجب رضائى عليهم، وحفظ النفس البشرية وصيانتها ديدن لهم، وشهادة الزور مستحيل عليهم هؤلاء الذين اصطلحوا مع الأخلاق وخاصموا الشقاق والنفاق وخلصوا إلى ربهم.

ثم ندخل إلى فضاءات «سورة الشعراء» وقصة موسى وفرعون وهذا الحوار الذى أثبت فيه موسى لفرعون أنه مرسل من ربه وأن الآيات معه حاضرة وقوية ونافذة، وكانت العصا أظهرها حيت تحولت حية وأكلت باطل السحر والسحرة وأكلت معه مكانة فرعون وجبروته وطغيانه، وإذا

بالسحرة الذين كانوا أعوانًا للباطل منذ لحظات يصبحون أعوانًا لموسى وللحق الذى يدعو إليه، وقالوا لفرعون عندما توعدهم بالويل والثبور قالوا بلسان المسلم لربه المستسلم لقضائه المؤمن بعدله الراضى بقضائه: ﴿لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ وتنشط آلة فرعون الإعلامية على السحرة الذين اهتدوا ولأتباع موسى وأخذوا يعبرون عن غيظم وحقدهم ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾، ففر موسى ومن معه من القتل والبطش وسار هو ومن معه وراءهم فرعون بجحافل الشر وقوى الباطل وجماعات المصالح وخزائن المال الحرام وعقول الهوى الجامح.

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾.

مضوا وراء موسى ومن معه، وأصبح البحر أمامهم وفرعون وراءهم وحتمًا سيلحق بهم، ولأن موسى مرسل من ربه ويعرف سنن الله فى الخلق، ويعلم أن الباطل قد يزهو حينًا لكنه لا يبقى ولا يظهر ولا ينتصر أبدًا وأن فرعون قد قتل وظلم وطغى وتجبر، هنا موسى امتلأ باليقين وغُذِّى بالثقة فى ربه وفى سنن ربه التى ليس لها تحويل ولاتبديل وهنا قال: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ياألله معى ربى فمعى النصر والنجاة والعون والفوز والسؤدد، معى الراحة والطمأنينة والسرور والحبور وإذا بالبحر طرق يابسة، وإذا بموسى ومن معه على الجانب الآخر آمنين مطمئنين وإذا فرعون وهامان وجنودهما يذيقهم البحر معنى الغرق ويذهبون عبرة للظالمين.

اللهم جنبنا الغرق فى الدنيا وميادينها وارزقنا النجاة فى الدنيا والآخرة.

ألا ما أعظم القرآن وما أعظم آياته.

«وَسِيقَ»... شتان بين الأولى والثانية

فى الجزء الرابع والعشرين أنت أمام بقية «سورة الزمر» و«سورة غافر» و«سورة فصلت»، وفى «سورة الزمر» تجد آيات تزلزل كيانك وتهدئ روعك وتزرع الأمن فى آن واحد، كيف؟ بما تعرضه من صور لمن تخاصموا مع الحق وصادقوا العداوة وائتلفوا مع الشر وذهبوا مع الذاهبين إلى جهنم، ومن ثم عندما تقرأها تحمد الله على البراءة منهم والطلاق البائن من أخلاقهم واختيارك الإيمان من هذه الصور فى هذه الآيات ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ حينما تقرأ هذه الصورة المشخصة لمن لا يريد الله ولامنهجه ولا أخلاقه التى أرادها لعباده، عندها تعرض قلبك على جهاز أشعة الإيمان وتضع نفسك فى اختبار التقويم الأخلاقى فى هذا الكتاب الكريم، وحينها تطمئن على رشادة المقصد وحسن النية وسلامة الطوية.

وفى نهاية السورة ﴿وَسِيقَ﴾ كلمة قيلت للفريقين لكن شتان بين من فى جهنم يلقى أنواع العذاب ومن فى الجنة يرفئ فى نعيم لاعين رأت ولاأذن سمعت ولاخطر على قلب بشر.. شتان بين من سيق لكفره وعناده وطغيانه وظلمه إلى جهنم ثم باعترافه بكلمة ﴿بَلَىٰ﴾ عندما سئلوا

عن الرسل الذين أنذروهم وحذروهم ومع ذلك عادوهم وخاصموهم وعاندوهم بل وقتلوهم كما فُعل بيحيى الذى قدمت رأسه وهو نبى لبغى!!! فكان الجزاء ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ الذين أذلو العباد والبلاد.

شتان بين: ﴿وَسِيقَ﴾ كما رأينا و﴿وَسِيقَ﴾ الثانية التى تصور موكبًا واحتفالًا ربانيًا وملائكيًا بممن أخلصوا بالقلب وأنابوا بالسريرة وتابوا بالنفس وأصلحوا بالعمل أى اتقوا، والصورة مفرداتها زمرة المؤمنين وجماعة الملائكة المرحبين قائلين ﴿...سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾، فكان الرد ممن أعد لهم النعيم ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾، ثم هذا الختام الرائع والصورة الجميلة واللوحة الأخاذة المؤثرة والكلمات الواضحة الواصلة المبينة:

﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۚ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

الحمد لله رب العالمين الحمد لله رب العالمين

ما أعظم القرآن وما أعظم آياته.

وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ

فى الجزء الخامس والعشرين وفى سورة تضع قواعد أساسية فى آية واحدة منها مبدأ من أهم مبادئ قيام الدولة فى الإسلام وهو نفسه اسم

السورة «الشورى»، وهى المنهج الذي يجب أن ترسخ معالمه وتثبت أركانه وتنظم آلياته بحيث لايستبد بالناس مستبد ولاتستعبدهم آلهة مزعومة من البشر، بل تكون الكلمة الأخيرة فى حياتهم وأحوالهم ومعاشهم ومآلهم لهم هم بالتشاور بينهم وبين من يحكمونهم. لذلك فالآية جاءت فى معرض حديث السورة عن الذين آمنوا، فهم الخُلَّص الذين ينفضون عن أنفسهم دنس كبائر الإثم ولايغشون الفواحش، وإذا هجمت عليهم وحوش الغضب وجحافل الأذى قتلوها بالعفو والصفح الجميل والكلام الطيب، وهم الذين لانت قلوبهم وصفت سرائرهم وارتاحت ضمائرهم لنداء الله بالاستجابة الراضية والرضا الدائم والسكينة الملازمة والأمن والأمان والطمأنينة والسلام.

ثم تأتى العبارة المرشدة والكلمات المؤصلة والمعنى المنشئ للعلاقة المثلى بين الحاكم والمحكوم: ﴿... وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ...﴾، أى لااستبداد ولاطغيان ولاخسف ولاعصف من الأول، والتزام وانتظام وطاعة فيما لاظلم فيه من الثانى، وكل عصر له آلياته فى تطبيق المبدأ، بحيث يكون الحاكم خادمًا للناس الذين يأتون به وهم الذين يلقون به أثرًا من آثار تاريخ مضى. والأمر شورى أى بالتشاور الحقيقى بآليات كل عصر من العصور وبأساليب النجاح المطلوبة لقضية المجتمع الأولى وهى أن الناس أحرار وليسوا عبيدًا وليسوا عددًا وليسوا حجرًا.

ومن أسف ورغم ورود هذه الآية الحاكمة المؤصلة المنشئة فى كتاب يقرؤه المسلمون، إلا إنهم أبعد الناس عنها وأعدى الناس لها وأبرأ الناس منها.. هذه الآية، التى حكمت بلادًا ليس لهم بالإسلام صلة فسادوا وأصبحت لهم سطوة وأقاموا بها دولة فيها العدل شارة والحق علامة

بهذه الآية حتى أصبح رجل أسود ابن رجل أفريقى مهاجر رئيسًا لأكبر دولة فى العالم.

الشورى ترتفع بها الأمم وتسود بها الدول ويسعد فى ظلالها الناس.. هى الشورى نظام من يريد دنيا نافعة حاكمها عادل ومحكومها راضٍ بالعدل والقسط، وكلاهما يصنع الرأى لكى يسعد الحاكم والمحكوم:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

لكى يسعد الحاكم والمحكوم

ما أعظم القرآن وما أعظم آياته.

ويشاء الله أن يكون عملى فى الدنيا الذى يسره الله لى هو أن أكون خادمًا لهذا الكتاب العظيم، وأن يكون الشعار الذى لطالما أعلنته للدنيا كلها محمولًا على موجات الأثير هو اسم هذا الكتاب العظيم وهو «إذاعة القرآن الكريم»، وأدعو الله أن يفتح لى أبواب جنانه بما قد يكون منى من إخلاص وتجرد فى هذا العمل من خدمة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وهنا لابد أن أذكر أن فى هذه الرحلة من تعلقت نفسى بهم لأنهم عاشوا للقرآن وبالقرآن، عاشوه التزامًا وأخلاقًا وأدبًا ومعاملة ودعوة، أذكر منهم هذا الرجل الذى كان عندما تسمعه يقرأ القرآن تحس بأنه يصور لك الآيات بصوته الهادئ الرصين المفهم المفسر الذى يأخذك فى عالم من النقاء والصفاء وأنت فى غاية الراحة والهدوء النفسى، الأستاذ «شاكر سلام»، الذى كان بالإضافة إلى ذلك خطيبًا بارعًا يهز أعواد المنابر، وكم كانت لنا معه لقاءات حيث كنا نقف وراءه فى الصلاة فى رمضان ونتمنى من قراءته

الهادئة الصحيحة المعبرة للقرآن ألا ينتهى، وكنت ومازلت أعتبره فى مقام الأب خاصة أنه يحمل بين جنبيه قلبًا طيبًا رقيقًا وكأنه قلب طفل لم تعركه الحياة. وممن عرفتهم يعيش مع القرآن قلبًا وروحًا وأدبًا وخلقًا وذوقًا رفيعًا فضيلة الشيخ «سيد أبو زيد» هذا الرجل الذى يشرق وجهه الأبيض بنور القرآن الكريم وتنطق ثناياه بالتواضع والتقى ويخرج منه كلم القرآن فى سلامة وصحة وألق لكى يشهد له عند ربه، هذا الرجل تشعر عندما تلتقيه وهو الأستاذ الكبير الذى كان يدرس القرآن وتجويده فى المدينة المنورة أنك أنت الأستاذ وهو التلميذ، حقًا كما نسميه نحن تلاميذه «الرجل القرآنى» قرأت عليه جزءًا كبيرًا من القرآن الكريم وكدت أحصل منه على إجازة، لكن يكفينى أننى التقيت وجهه الملائكى فأخذت منه رشفة من علم وأدب القرآن الكريم.

تسلف

الإنسان كائن اجتماعى يتأثر ببيئته التى ينشأ فيها، والبيئة التى عشت فيها أول حياتى كانت بعيدة عن «التسلف» بمعنى التشدد فى أمور تحتمل أكثر من رأى. وهذه البيئة كانت متدينة من حيث الطبيعة، فالتعاون بين الناس نوع من التدين وإغاثة الملهوف نوع من التدين والوقوف مع المظلوم ضد الظالم نوع من التدين والجلسات العُرفية التى تعيد الحقوق إلى أصحابها هى عين التدين.

وكذلك كانت المرأة فى الريف محتشمة، تعرف أن من مقتضيات دينها أن تسبغ ثيابها على نفسها، وكانت الجلابية الواسعة بالسفرة التى تتسع أكثر عند منطقة الصدر هى اللباس الذى يتفق مع كل ما يأمر به الدين

من حشمة. ولا أنسى أمى ـ رحمها الله ـ عندما كان يطرق على الباب طارق وتكون مكشوفة الرأس تصرخ وتقول: «انتظر يابنى حتى ألبس الإيشارب أو الطرحة».

هذا هو الدين المتأصل فى المجتمع المصرى وخاصة فى الريف الذى قضيت فيه طفولتى وشبابى، فالدين بالنسبة إلى هذا المجتمع هو القيم التى يعيش بها ويتعامل مع الناس وفقًا لما تمليه عليه هذه القيم، ومن ثم فكل ما كان يصدر من سلوكيات وتصرفات أو أغلبه كان كذلك.

ولكن فى منتصف السبعينات فى المرحلة الثانوية، بدأت مرحلة جديدة من التفكير، هذه الفترة الزمنية التى انتشر فيها بعض دعاة السلفية الذين قدموا الدين بطريقتهم الخاصة التى تنقلب فيها الأولويات. فما هو سنة كاللحية والثوب القصير يتحول إلى المطلب الأول، وما هو أجدى للمجتمع وأنفع للناس لايهم بل يصبح فى ذيل هذه الأولويات. وكما قال الشيخ: «محمد الغزالى» رحمه الله «لقد نجح بعض الفتيان فى قلب شجرة التعاليم الإسلامية فجعلوا الفروع الخفيفة جذوعها أو جذورًا، وجعلوا الأصول المهمة أوراقًا تتساقط مع الرياح!»، وأصبح الدين هو هذا الشكل الذى انصبت دعوتهم إليه، وغَلِّف هذا بدعاوى تجعل من يناقش أو يحاور خارج عن الدين أو على الأقل مبتدع.

عشت هذه الفترة حيث كنت أتابعهم وأطلقت لحيتى، وظل أبى يحاول أن يقنعنى بأن هذه اللحية من السنة التى يمكن تركها لأنها قد تسبب لك ضررًا من ملاحقات أمنية، وكانت آنذاك كل من يظهر عليه أىٌ من مظاهر التدين يكون له ملف فى الأمن، فلم أكن ألتفت إلى ذلك وكنت أصر وقتها على رأيى. ولكن ـ والحمد لله ـ لم تستمر معى

هذه الفترة كثيرًا، وإن كنت قد أفدت منهم عندما كانوا يتحدثون فى الرقائق؛ قيم الإخلاص والتواضع وخفض الجانب والعبادات كقيام الليل، حيث تعلمت منهم أن أكون عابدًا قانتًا لله تعالى وأن أخلص فى عبادتى لله سبحانه، ومازلت أحن إلى قيام الليل بين الفينة والأخرى. وهذه لاشك تحُسب لهم، ويحسب لهم أيضًا أنهم لم يكونوا جماعة مغلقة لاتسمح لأحد أن ينفذ إلى داخلها، وينظرون إلى المجتمع بل العالم كله أنه ينتظر أستاذيتهم، بل كان لكل منهم طريقة فى العرض، لكنهم جميعًا متفقون على ذم الدنيا والزهد فيها والإعراض عنها. وقليل منهم من كان عالمًا بحق، وإنما هم دعاة التف حولهم مريدوهم الذين يستمعون إليهم فى حالة من الانبهار التى تستحيل معها المراجعة لما يقول أو المناقشة أو الحوار لأن كلام الشيخ لايرد عندهم.

هذا التيار الذى يستدعى زمانًا مضى، يريد أن يعيش الناس فيه قسرًا على الرغم من وجودهم فعليًا فى زمان ومكان آخر، بالرغم من أن هذا الدين العظيم يصلح لكل زمان ومكان، وأن أحكامه الثابتة والمتغيرة صالحة للتطبيق فى مختلف الأزمنة والأمكنة وليس فى زمن البداوة ولامكان الصحراء.

لذا تجدهم هاجموا بشدة أكابر علماء الأمة، الذين راجعوهم فى آرائهم، فشنوا هجمة شرسة على «الشيخ محمد الغزالى» وخاصة فى كتابه الأخير «السنة بين أهل الرأى وأهل الحديث». وهاجموا «الشيخ الشعراوى» لصوفيته وظلوا ينددون به فى مساجدهم. وهاجموا العالم الربانى الدكتور «عبد الحليم محمود» لأن الرجل فهم الدين بشكل لايروق لهم ولالفهمهم. وفى الحقيقة لو أنهم قالوا: «رأينا فى هذه القضايا كذا ورأى

غيرنا كذا» لكان الأمر يبدو مقبولًا، ولكن للأسف هم يقولون ـ أو معظمهم يقولون حتى لانظلم المعتدلين منهم ـ «رأينا صواب لايحتمل الخطأ ورأى غيرنا خطأ لايحتمل الصواب»، وهذا مايؤدى إلى القطيعة بينهم وبين كثير من فئات المجتمع.

ورأيى فى هذا الموضوع أنهم يمثلون اتجاهًا فى الرأى يجب أن أحترمه ما دام لم يحمل سلاحًا ولم يرهب المجتمع، حتى ولو كنت مختلفًا معهم فى الرأى، وحتى ولو لم يقبلوا برأيى، وكثير منهم كذلك للأسف.. والعجيب أنهم يأخذون على الشيعة عدم مراجعة آيات الله عندهم، وهم يفعلون نفس الشىء ولكن بأسماء وعناوين أخرى، وقد جاءت ثورة يناير فدهست بحقيقتها السلمية كل دعاواهم التى كانت ردءًا لمبارك ورجاله بعدم جواز معارضته بأى نوع من أنواع المعارضة السلمية.

ثم أعطيت نفسى بعد ذلك لمن ينظر إلى الدين نظرة علمية ومن يقدم الأسس التى يجب أن تبنى عليها النظرة إلى الدين من غير تشدد ومن دون أن تقلب الأولويات. فالسلف هم من أخذنا عنهم هذا الدين العظيم ولولاهم ماوصلنا هذا الدين، فمن هذه النقطة نحن جميعًا سلفيون، بمعنى أننا خلف عن سلف هذه الأمة وليست السلفية كما يدعيها هؤلاء باعتبارها اتجاه فكرى أو سياسى أو نزعة من نزعات الفكر. وما جعل السلف متهمًا عند بعض الناس أو فى العالم كله هؤلاء الذين ينصبون أنفسهم المتحدثين الرسميين والحصريين عن السلف.

وأنقل هنا نصين رائعين حول هذا الموضوع، نص مكتوب للعلامة الكبير الشيخ «محمد أبو زهرة» يتحدث عن معنى السلف والسلفية، والنص الآخر كان ضمن لقاء أجريته مع العلامة الأستاذ الدكتور «محمد السيد الجليند» عن معنى السلف والسلفية.

فالعلامة محمد أبو زهرة يقول فى ص 180 من كتابه «تاريخ المذاهب الإسلامية»:

«ينظر هؤلاء السلفيون إلى الوحدانية على أنها الأساس الأول فى الإسلام، وذلك حق لا مجال فيه للريب، ويفسرون معنى الوحدانية تفسيرًا فى جملته يتفق وما يقرره المسلمون أجمعون، ولكنهم يفترضون أن أمورًا تنافى الوحدانية لا يقرهم جمهور المسلمين عليها؛ فهم مثلًا يعتقدون أن التوسل لله بأحد من عباده الذين مضوا إلى ربهم منافٍ للوحدانية، ويعتقدون أن زيارة الروضة الشريفة مستقبلًا لها مناف للوحدانية، ويعتقدون أن إقامة شعائر حول الروضة الشريفة منافٍ لذلك، وأن التوجه بالدعاء إلى الله مستقبلًا ضريح نبى أو ولى مناف للوحدانية، ويعتقدون أن ذلك مذهب السلف الصالح وأن غيره بدع تقدح فى معنى التوحيد».

ثم يقول شيخنا الغزالى بعد أن يورد رد ابن الجوزى عليهم فى ص 184 من الكتاب:

«ونرى هنا أنه يجب أن نذكر أن ادعاء أن هذا هو منهج السلف موضع نظر، وقد رأينا رأى ابن الجوزى عندما شاع ذلك فى عصره». هذا كلام العلامة «محمد أبو زهرة».

أما كلام الأستاذ الدكتور «محمد السيد الجليند»، فهو يقدم صورة أخرى من خلال دراساته المستفيضة للإمام ابن تيمية ولمفهوم السلف، وكان ذلك فى حوار معى فى برنامج «سيرة ومسيرة». قال: «ليست السلفية مذهبًا وليست فرقة وليست اتجاهًا سياسيًا، وإنما هى قواعد وأصول ورثها الصحابة عن الرسول ﷺ. ولفظ السلف ربما لم يظهر إلا فى أواخر القرن الثانى الهجرى حين شاع الوضع للأحاديث ونسبتها زورًا إلى النبى ﷺ، فظهر المحدثون بمنهجهم الرائع فى تنقية الأحاديث

مما فعله الوضاعون، فسموا بالمحدثين الذين ينتسبون عن طريق السند إلى سلف الأمة، والذين حذوا حذوهم سموا بالسلفيين لم يكن لهم مذهب ولا فرقة ولا مبادئ ولا قواعد وضعوها من عندهم، وإنما هى اتباع ونقل أمين لما كان عليه الرسول وصحابته. أما ما يقال الآن عن السلفية والسلفيين فهى اجتهادات من بعضهم الذين قرأوا البعض وتركوا البعض، منهم من اهتم بالحديث وعلومه ومنهم من اهتم بالسياسة وكلهم يدعى نسبًا للسلف، فإذا غربلت ما معهم من البضاعة وجدت ماهو صحيح يشكرون عليه وما هو زائف منسوب زورًا إلى السلف فيذم ويحذر منه.. ومن أخطر ما ينسب إلى السلف قضية التكفير وقضية التطرف وقضية الغلو وقضية تكفير المجتمع وتكفير الحاكم، وهذه أمور ماكان أبعد سلف الأمة عنها».

وتبقى هذه الفترة من حياتى مهمة، حيث كانت تجربة ثرية من تجارب التعامل مع الدين والتدين، خرجت منها بعقلى الذى لايقبل إلا مايقتنع به وبالفطرة السليمة. أخذت منها الإقبال على الله ـ سبحانه وتعالى ـ وقيام الليل، وتركت التشدد فيما لايستحق التشدد فيه، وتركت النظرة الأحادية التى تجعل من رأيى وكأنه منزل لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وللأسف هذه النظرة سائدة عند أفراد التيار الإسلامى عمومًا أو معظمهم، فى حين أن الله سبحانه وتعالى يقول فى آية من آياته ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة سبأ: 24) ويقول فى آية أخرى: ﴿... قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (سورة النمل: 64).

خطب الجمعة وكلية الدعوة الإسلامية

فى المرحلة الثانوية والجامعة، كان لى عالمى الخاص حيث كنت وحدى

فى هذه الغرفة على سطح البيت، والتى كان ينتصفها مكتب قديم كبير وبجانبه سرير أنام عليه، وكانت هذه صومعتى ومسجدى ومكتبتى. وفى هذه المرحلة بدأت القراءة فى الكتب الدينية، ومهد لهذا حفظى للقرآن الكريم، فكلما حفظت كلما تساءلت وسألت عن المعنى وعن المرامى والأهداف وعن القصص وعن الأحكام. فبدأت بشراء الكتب من مصروفى القليل، وأذكر أن من أول الكتب التى اشتريتها «تفسير ابن كثير» وأذكر أننى قد اشتريت نسخة بسبعة جنيهات وكانت نسخة ورقها أصفر ـ مازالت عندى فى مكتبتى إلى الآن ـ وأذكر أننى عندما حصلت عليه قرأت تفسير معظم ما كنت أحفظه من هذا الكتاب، خاصة أننى قد اعتليت درجات المنبر فى أوائل فترة الجامعة. وأذكر أول مرة أخطب فى الناس كانت وأنا فى السنة الثانية فى كلية الحقوق، وكانت فى شهر رمضان وبعد صلاة الفجر فى موعظة قصيرة، وأذكر أنها كانت عن عدل سيدنا عمر، وبمجرد أن انتهيت منها حتى فتحوا لى باب المنبر على مصراعيه.

لقد كانت هذه الكتب هى الزاد الذى كنت أنهل منه فى هذه المهمة، وكانت نافذة أطل منها على مجموعة من العلوم. فعلم التفسير قرأت فيه معظم كتب التفسير؛ التفسير بالأثر كابن كثير والقرطبى، والتفسير العقلى الفلسفى كفخر الدين الرازى فى «مفاتيح الغيب» الذى كنت مفتونًا به، والتفسير اللغوى كالزمخشرى، وهذا التفسير الذى أعتبره من أهم كتب التفسير قاطبة وهو «تفسير الطاهر بن عاشور» «التحرير والتنوير» الذى حوى فيه الرجل التفسير بالأثر والتفسير اللغوى والقراءات، إضافة إلى بعض النكات واللمحات التى لاتجدها إلا عنده، وهذا مادعانى للبحث عن الرجل فوجدته عالمًا كبيرًا ليس فى التفسير فقط بل كان مرجعًا فى علم المقاصد، وله كتاب مهم فى هذا الموضوع. وأعجبنى كثيرًا كذلك تفسير الألوسى.

وقرأت فى هذه الفترة وخاصة بعد انتهائى من الجامعة مباشرة ـ حيث كنت خاليًا من أية اهتمامات دراسية كانت تكبلنى ـ «سيرة ابن هشام» كاملة، وكنت قد اشتريتها من معرض الكتاب فى إحدى السنوات، وكانت تستوقفنى فيها بعض الروايات التى كنت أبدى فيها اعتراضى. فمثلًا أذكر رواية من الروايات أن امرأة عرضت لعبد الله والد النبى قبل زواجه من آمنة ورأت بين عينيه نور فأرادت أن يقع بها فرفض لأنه لايفعل هذا الفعل وهو الزنا، ولما تزوج من السيدة آمنة رجع إليها وأراد هو أن يقع بها فرفضت وقالت: لقد ذهب النور الذى بين عينيك، فقلت فى نفسى كيف يرفض الزنا ويرجع ثانية ليطلبه هو نفسه!!

وقرأت كتاب «البداية والنهاية» كاملًا، حيث الأحداث والمواقف فى التاريخ الإسلامى الذى يجب عند قراءته أن نعلم أنه تاريخ لبشر يصيبون ويخطئون وليس تاريخًا لملائكة، وأنه يجب أن نميز بين الدين كدين مُنَزَّل من عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ وبين من ينتسبون إلى هذا الدين، ولأن هذا التاريخ تاريخ بشر فستجد فيه صفحات مضيئة مشرقة لأناس أجسامهم أجسام بشر وقلوبهم قلوب ملائكة أبرار كفترة الخلافة الراشدة، وصفحات سوداء قاتمة تتراقص فيها الشياطين على أنغام الهوى البغيض والتعصب الأعمى للسيادة، حتى ولو اقتضى الأمر تتبع آل بيت النبوة بالتقتيل والتشريد كواقعة مقتل سيد الشهداء «الإمام الحسين» ومبعوثه «عقيل بن أبى طالب» فى مشهد لطخ وجه التاريخ بدم أطهر الخلق بعد الأنبياء. وكذلك بداية الدولة العباسية التى قامت على أنهار من الدم ومن عجب أنك ترى رغم كل هذا الدم. فى كل من هاتين الدولتين الأموية والعباسية صفحات تدعو للفخر فى تاريخ الإنسانية كلها، كفترة

خلافة عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ وخلافة الرشيد حيث كانت الحضارة الإسلامية فى أوجها وفترة وهكذا صفحات التاريخ فيها كل شىء مما يعرفه البشر.

لكن على كل من يقرأ هذه الكتب أن يحذر من الفخ المنصوب على صفحاتها من الكذابين والوضاعين وأصحاب الأهواء الذين دسوا رواياتهم الكاذبة لكى يشوهوا وجه هذا التاريخ ووجه بعض الفترات بالذات. وحسبى أن أنقل ماقاله عميد المؤرخين «الإمام والمؤرخ ابن جرير الطبرى» فى مقدمة موسوعته فى التاريخ «تاريخ الأمم والملوك» قال فيها صراحة: «وليعلم الناظر فى كتابى هذا أن اعتمادى فى كل ما أحضرت ذكره فيه ـ مما شرطت أنى راسمه فيه إنما هو على الأخبار التى أنا ذاكرها فيه ـ والآثار التى أنا مسندها إلى رواتها، دون أن أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه، إذ كان العلم بأخبار الماضين منه وما هو كائن من أبناء الحادثين غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس. فما يكن فى كتابى من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما سينكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أن لا يعرف له وجهًا من الصحة ولامعنى فى الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت فى ذلك من قِبَلِنا وإنما أُتِىَ من بعض ناقليه إلينا، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أُدِّى إلينا».

وهذا الكلام يقرر به الطبرى أنه جمع جميع الروايات التى وصلت إليه، وكما قال: «دون أن أدرك بحجج العقول وأستنبط بفكر النفوس إلا اليسير القليل منه»، وهذا ينطبق بالطبع على باقى من كتب فى التاريخ غير

الطبرى. لم أدرك هذه الحقيقة إلا بعد القراءة لهذه الكتب والتى رسمت صورة لاتليق حتى لبعض مواقف الصحابة فى الفتنة التى وقعت فى آخر عهد سيدنا عثمان وفترة خلافة سيدنا على، حتى قرأت الكتاب الذى أنصح بقراءته كل من أراد أن يعرف الحقيقة بالأدلة الدامغة وهو كتاب «العواصم من القواصم» للقاضى «أبى بكر بن العربى» الذى أضاء النور فى هذه المرحلة الصعبة من مراحل التاريخ الإسلامى وأعطى بحق الصحابة مايستحقونه من تبجيل واحترام بتحقيقه البارع وإيراده للأخبار الصحيحة فى هذا الشأن، وكشفه لتزييف الأخبار التى اعتمد عليها وخاصة مما رواها «لوط بن يحيى أبى مخنف الشيعى» والتى شوهت كثيرًا من مواقف ليس التابعين فقط بل الصحابة أنفسهم.

وممن قرأت لهم فى هذه الفترة وعشت معهم الإمام «ابن القيم أو ابن قيم الجوزية» والذى كان اسمه «شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن أيوب» وسمى بابن القيم لأن والده كان قيمًا على المدرسة الجوزية بدمشق فاشتهر بذلك اللقب. قرأت له مجموعة من كتبه فى ذلك الوقت، منها كتاب «زاد المعاد» الذى يتحدث فيه عن الفقه والسيرة والحديث فى أربعة أجزاء. ومن الكتب التى أبهرتنى من كتبه كتاب «الروح» هذا الكتاب الذى أسهب فيه بروايات وقصص ورؤى حول أسئلة يحب الإنسان أن يعرفها وأن يجد إجابة عنها، مثل هل الموت للروح أم للبدن؟ وهل تتلاقى أرواح الأحياء والأموات؟ وهل يعرف الأموات بزيارة الأحياء؟، وكنت أرجع إلى هذا الكتاب كثيرًا.

ومن الكتب المهمة التى قرأتها للإمام «ابن القيم» وتعتبر من أهم كتبه كتابه «إعلام الموقعين عن رب العالمين» الذى تحدث فيه بإسهاب

عن الفتوى ومن له حق الفتوى والذى تولى الإفتاء فى جميع العصور، ومما ذمه فى مقدمة الكتاب: «ثم خلف من بعدهم خلوف فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، كل حزب بما لديهم فرحون، وتقطعوا أمرهم بينهم زبرًا، كل إلينا راجعون، جعلوا التعصب للمذاهب ديانتهم التى بها يدينون ورءوس أموالهم التى بها يتجرون. وآخرون منهم قنعوا وقالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون. والفريقان منحرفان عما ينبغى اتباعه من الصواب، ولسان الحق يتلو عليهم ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب».

ومن كتب ابن قيم الجوزية التى تركت أثرًا فى نفسى كتابه «مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين» وهو كتاب أقرب إلى كتب الصوفية، حيث عمد ابن القيم إلى كتاب أبو إسماعيل الهروى «منازل السائرين» فشرح كلامه فى أحسن بيان، معقبًا على مافيه مما رآه مخالفًا للسنة أو مطمعًا لمن يريد أن ينال من الإسلام. وقد اشتريت الكتاب وقرأته كاملًا، وفيه يقول محقق الكتاب: «مدارج السالكين موسوعة أخلاقية ومرجع أساسى فى تهذيب النفوس وطب القلوب، وحادى للروح إلى معارج الحى القيوم، سلك فيه مايشبه نهج الصوفية لكن بضوابط الشرع الحنيف والقواعد السنية».

ويجب عند قراءة هذه الكتب التراثية أن يراعَى الزمن الذى كُتبت فيه والأجواء التى أحاطت بهذا الزمن، حتى لا تُظلم هذه الكتابات وحتى لا يُتهم الإسلام بأنه غير مواكب للعصر وللتحديات التى تواجه الإنسان فى كل عصر من العصور.

وفى منتصف التسعينيات، علمت أن جامعة الأزهر تتيح للحاصلين

على شهادة جامعية من التعليم العام التقدم للحصول على ليسانس دعوة إسلامية أو أصول دين، فالتحقت أنا وأحد أصدقائى بكلية الدعوة الإسلامية كدراسة منهجية للدين، وبالفعل كانت دراسة منهجية للعلوم الإسلامية كعلم التفسير وعلم الحديث وأصول الفقه والنحو والصرف، وبالإضافة للدراسات الدينية درسنا «كتاب شذور الذهب» لابن هشام وكذلك معظم ألفية ابن مالك بالإضافة إلى مقررات الأدب التى كانت تختار من عيون الأدب نثرًا وشعرًا. وانتهيت من الدراسة عام 1999، وكانت هذه شهادة الليسانس الثانية فى حياتى بعد ليسانس الحقوق عام 1987.

أدب وشعر

منذ أن تعلمت القراءة كانت تشدنى الكلمة، بمبناها ومعناها بجرسها برمزها بفحواها، كانت تلازمنى، تقض مضجعى، تنادينى أناديها، وكنت أعلقها فى فناء النفس وأحملها فى ثنايا الروح، لأن البدء كانت الكلمة، والإيمان بالله كلمة، والطاعة لله كلمة، والسلام كلمة تسرى فى قلوب الناس فيضحى الكل فى ضيافة الكلمة.

وكانت لى مع الأدب والشعر حياة طويلة من بداية صلتى بالأناشيد فى سنوات عمرى الأولى، ثم فى المرحلة الإعدادية والثانوية التى كنا قد تعرفنا فيها على مدارس الأدب والشعر. أذكر فى هذه المرحلة أننا قد تعرفنا على مدارس الشعر المختلفة وخاصة مدرسة الشعر الجاهلى وما فيه من متعة مشعشعة بالصعوبة فى الوصول إلى المعنى، ومازلت أذكر معلقة امرئ القيس، هذا الشاعر الجبار وهو يصور الليل والخيل فى أبدع صورة:

وَلَيلٍ كَمَوجِ البَحرِ أَرخى سُدولَهُ عَـلَيَّ بِـأَنـواعِ الهُـمـومِ لِيَبتَلى
فَقُلتُ لَـهُ لَمّـا تَمَطّى بِصُلبِهِ وَأَردَفَ أَعجازًا وَناءَ بِكَلكَلِ
أَلا أَيُّها اللَيلُ الطَويلُ أَلا اِنجَلى بِصُبحٍ وَما الإِصباحُ مِنكَ بِأَمثَلِ
وَقَد أَغتَدى وَالطَيرُ فى وُكُناتِها بِمُنجَرِدٍ قَيدِ الأَوابِـدِ هَيكَلِ
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبِلٍ مُـدبِـرٍ مَعًا كَجُلمودِصَخرٍحَطَّهُالسَيلُمِنعَلِ

فقرأت كثيرًا من هذا الشعر رغم صعوبته، وكنت أستعين وقتها بمعجم «مختار الصحاح» وكنت قد اشتريته لأننى وجدته لا غنى عنه لكى أعرف المستغلق من المعانى والألفاظ.

وممن وقفت عنده من الشعراء الجاهليين «عنترة»، وأعجبنى منه نصوص الحكمة المنتقاة من شعره وفصول الشجاعة النادرة، فمثلًا من شعر الحكمة الرائعة عنده يقول فى قصيدة منها:

لا يَحمِلُ الحِقدَ مَن تَعلو بِهِ الرُتَبُ وَلا يَنالُ العُلا مَن طَبعُهُ الغَضَبُ
وَمَن يِكُن عَبدَ قَومٍ لا يُخالِفُهُم إِذا جَفوهُ وَيَستَرضى إِذا عَتَبوا
لَئِن يَعيبوا سَوادى فَهوَ لى نَسَبٌ يَومَ النِزالِ إِذا ما فاتَنى النَسَبُ
إِنَّ الأَفاعى وَإِن لانَت مَلامِسُها عِندَ التَقَلُّبِ فى أَنيابِها العَطَبُ

ومن إبداعه فى شعر الحكمة:

وللحلم أوقاتٌ وللجهلِ مثلُها ولكن أوقاتى إلى الحلمِ أقربُ
نهيتُكَ عن طبعِ اللئامِ فإننى أرى البخلَ يأتى سنا والمكارِمُ تطلبُ
وأعلمُ أن الجودَ فى الناسِ شيمةٍ تقوم بها الأحرارُ والطُبع يغلبُ

لكن مع ذلك أخذت عليه أن مشكلته فى حياته كانت سواد بشرته، ولم يقمها ثورة من أجل كل العبيد كما فعل «اسبارتاكوس» وأنه يريد أن يسعد بعبلته وتسعد به كما يقول:

لَعَلَّ عَبلَةَ تُضحى وَهيَ راضِيَةٌ عَلى سَوادى وَتَمحو صورَةَ الغَضَبِ

لكنه يبقى من أعظم شعراء العربية قاطبة.

وعندما دخلنا الجامعة فى مدينة طنطا كان لهيئة الكتاب معرض دائم فى أشهر ميادين طنطا وهو ميدان الساعة، هذا المعرض الذى اشتريت منه معظم مقتنياتى فى الأدب والشعر. وكنت أختار عند الشراء الأعمال الكاملة دائمًا، ومما اشتريته ديوان «حافظ إبراهيم» كاملًا وقرأته كاملًا، والشوقيات لأحمد شوقى، ثم اشتريت ديوان المتنبى بشرح العكبرى وقرأته رغم صعوبته، لأنك عندما تقرأ للمتنبى ثم تعرف معنى ماقرأت تحس بإبداع من تسلم درع الشعر العربى قاطبة ومن دانت له اللغة فى الحكم والصور البلاغية، حتى قال:

أنا الذى نَظَرَ الأعمى إلى أدبى وَأَسْمَعتُ كلماتى من به صَمَمُ

أنامُ ملءَ جفونى عن شوارِدها ويسهُر الخلقُ جَرَّاها ويختصمُ

وما يستوقف أى قارئ للمتنبى كم الحكم المُتَضَّمنة فى شعره والتى أصبحت علامة عليه، على الرغم من أن معظم شعره كان للمدح أو للقدح، لكنه يبقى دائمًا أعظم شاعر فى العربية. ومن حكمه ـ كما يقول العلامة الكبير الدكتور «حامد طاهر» ـ التى أصبحت تجرى على الألسنة وكأنها مثل شعبى:

والظلمُ من شِيَمِ النفوسِ فإن تجد ذا عـفـةٍ فلعلَه لاَيـظِـلـمُ
لايسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى حتى يُـراقُ على جوانبه الدمُ

وكذلك:

ذو العقلِ يشقى فى النعيم بعقلهِ وأخو الجهالةَ فى الشقاوةِ ينعمُ

وكذلك:

أَعزُ مكانٍ فى الدنيا سَرجٌ سابحٌ وخيُر جليسٍ فى الزمان كتابُ

وهناك الشاعر الفارس الشجاع النبيل «أبو فراس الحمدانى» الذى نشأ فى كنف ابن عمه «سيف الدولة الحمدانى» وولاه ولاية من الولايات، وأسره الروم ثم افتداه ابن عمه، ثم أُسر للمرة الثانية، ثم قُتل فى النهاية بمؤامرة من مولى لابن عمه. وقد عبر فى قصائد رائعة عن مأساته، منها قصيدة إلى ابنته يقول فيها:

أبـنـيـتـى لاتحـزنـى كـلُ الأنـامِ إلى ذهـابِ
أبـنـيـتـى صـبرًا جمـيـلا للجليلِ مـن المُـصـابِ
نُـوحِـى عَـلَىّ بِـحَـسَرةٍ من خَلفِ سـترِكِ والحجابِ
قـولى إذا نـاديـتـنـى وعييت عن رد الجـواب:
زيُـن الشباب أبـو فراس لم يُـمـتـع بـالـشـبـاب!

وقصيدته التى خلدتها أم كلثوم بصوتها «أراك عصى الدمع»، سأختار منها بعض الأبيات التى لم تغنها أم كلثوم وهى أروع مما غنته، تدل على علو نفسه وأخلاق الفروسية عنده:

يقولون لى: «بعتَ السلامةَ بالردى» فقلت: أما والله مانالنى خُسرُ
وهل يتجافى عنى الموتُ ساعة إذا ما تجافى عنى الأسرُ والضّرُ؟
هو الموت فاختر ماعلا لك ذِكره فلم يمتِ الإنسان ماحيى الذكرُ
وإن متُ فالإنسان لابد ميت وإن طالت الأيامُ وانفسح العمرُ
تهون علينا فى المعالى نفوسَنا ومن خطبَ الحسناءَ لم يغلها المهرُ

وفى هذ الفترة أيضًا حصلت على أعمال المتنبى الثانى فى شعر العربية، «أحمد شوقى» المعروفة «بالشوقيات» وكانت متعة لاحد لها حيث قرأت المجلدين. وكنت أقف عند الإسلاميات التى أبدع فيها شوقى وكنت أحفظها عن ظهر غيب وخاصة القصائد التى غنتها أم كلثوم، وما أجمل الكلمات وما أجمل صوت أم كلثوم فى تصويرها لقصيدته الخالدة «سلوا قلبى» وإن كانت لم تغنِ بعض أبياتها مثل:

ولاينبيك عن خُلُقِ الليالى كمن فقدَ الأحبة والصِّحابا
أخا الدنيا أرى دنياكَ أفعى تُبَدِّلُ كلَ آونةٍ إهابا
وأن الرقطَ أيقظ هاجعاتٍ وأترع فى ظلال السلم نابا
ومن عجب تُشَيِّبُ عاشقيها وتفنيهم ومابرحت كِعابا
فمن يَغْتَر بالدنيا فإنى لبستُ بها فأبليتُ الثيابا
لها ضحكُ القيانِ إلى غبيٍ ولى ضحكُ اللبيب إذا تغابى
جنيتُ بروضها وردًا وشوكًا وذقت بكأسها شهدًا وصابا
فلم أر غيَر حكمِ الله حكما ولم أرَ دون بابِ الله بابا

وكنت أعجب وقتها من بعض القصائد التى لا أفهم لماذا يهاجم فيها شوقى بعض الأعلام أو يمدح بعض الشخصيات، كما فعل فى مدحه لكمال أتاتورك حتى إنه قارنه مع الصحابى الكبير خالد بن الوليد فى قصيدته التى مطلعها:

الله أكبر كم فى الفتح من عجب
ياخالد الترك جدد خالد العرب

فعرفت بعد ذلك أن مدحه لكمال أتاتورك كان عندما انتصر فى موقعة سالونيك، ولكنه عندما عرف خديعته كتب قصيدته الرائعة التى يرثى فيها الخلافة بقوله:

عادت أغانى العرسِ رجعَ نواحِ وُنعِيَت بين معالمِ الأفراحِ
كُفِّنت فى ليل الزفاف بثوبه وُدفنِتِ عندَ تَبلُّج الإصباح
ضجت عليك مآذنٌ ومنابرٌ وبكت عليكِ ممالكٌ ونواحِ

وقرأت له مسرحياته الشعرية وكنت أحفظ كثيرًا من «مسرحيته مجنون ليلى» كمناجاة قيس لجبل التوباد فى هذه القطعة التى كان يغنيها «محمد عبد الوهاب» فيزيدها بهاءً وروعةً، التى يقول فى مطلعها:

جبلَ التوباد حياكَ الحيا وسقى اللهُ صبانا ورعا
فيك ناغينا الهوى فى مهدهِ ورضعناه فكنتَ المرضِعا
وعلى سفحِكَ عشنا زمنا ورعينا غنَم القومِ معًا

وتنتهى هذه المقطوعة الشعرية من المسرحية بهذه الحكمة:

قـد يهــونُ العمُر إلا ساعةً وتهــونُ الأرضُ إلا موضعًا

وفى فترة الجامعة، حيث كنت نهمًا للقراءة فى الشعر والأدب كنت أزور أحد أصدقائى وكان مهتمًا بالأدب والشعر وهو الأستاذ «أحمد عبد العزيز»، فوجدت عنده بضعة كتب لناقد لبنانى عن مجموعة من الشعراء، منهم «أبو القاسم الشابى» و«بشارة الخورى» الملقب بالأخطل الصغير، فأخذت هذه الكتب وقرأت الدراسة النقدية للشاعرين وكيف تأثر الشابى بثقافته العربية وكذلك بشارة الخورى، ولكن الشابى كان أعمق، إذ كانت تجربته الشعرية ثرية متدفقة، ومازالت تسكن هذه الكتب مكتبتى إلى الآن. قد ترك أبو القاسم الشابى هذا الشاعر العبقرى ـ الذى مات فى الثلاثينيات من عمره ـ شعرًا سيظل علامة فى تاريخ الشعر العربى، ومن أعظم ماقال دحرًا للاستبدادًا ورفعًا لقيمة الإنسانية متمثلة فى إرادة الشعوب:

إذا الشعبُ يومًا أراد الحياة فلا بُـدَّ أن يستجيبَ القَدَر
ولابــد لـلـيـلِ أن ينجلى ولابُــدَّ للقيدِ أن ينكسر
ومـن لم يُعانقُه شـوقُ الحياة تـبـخَّـر فى جَـوِّهـا وانـدثـر
كذلك قالت لِيَ الكائناتُ وحـدثـنـى روحُـهـا المستتر
ودمدَمَتُ الريحُ بين الفجاج وفـوق الجبالِ وتحـتَ الشجر
إذا مـا طـمِـحـتَ إلى غاية ركبتَ المُنى ونسيتَ الحَـذر
ومـن لايحـبُ صـعـودَ الجبال يعش أبـد الـدهـرِ بـين الحفر

وقد غنى «محمد عبد الوهاب» قصيدة «الصبا والجمال» للشاعر

«بشارة الخورى» الذى كان يلقب بالأخطل الصغير أو شاعر الحب والهوى وعمل بالسياسة وأنشأ حزبًا سياسيًا فى لبنان، وأختار لك أبيات تقطر وطنية على الرغم من أنه معروف برومانسيته ورقته، وهذه الأبيات من قصيدة وطنية له عرضها الكتاب بعنوان «ياجهادًا صفق المجد له» منها:

يـا جـهـادًا صَـفَّـقَ المـجـدُ له ... لِبس الغارُ عليه الأُرجـوانـا

شرفٌ بـاهَـتْ فلسطينُ به ... وبـنـاءٌ لـلـمـعـالى لايـدانـى

إن جرحًا سـالَ من جبهتها ... لثمته بـخـشـوعٍ شفتانا

وأنـيـنـا بـاحـت الـنـجـوى به ... عـربـيًـا رشـفـتـه مقلتانا

يـا فلسطينُ الـتـى كـدنـا لِما ... كابدته من أسىً ننسى أسانا

نحن يا أختُ على العهدِ الذى ... قد رضعناه من المهد كلانا

يثربُ والـقـدسُ منذ احتلما ... كعبتانا وهـوى العرب هوانا

وكان ممن أقبلت عليهم شعراء الشعر الحر وقرأت لهم جميعًا، فقرأت الأعمال الكاملة «لصلاح عبد الصبور» وخاصة ديوان «الناس فى بلادى»، وأيضًا الشاعر «محمد إبراهيم أبو سنة» الشاعر المظلوم ضمن فئة شعراء الشعر الحر الذى لم يلق شهرة تليق به وكنت أحفظ بعض قصائده وأرددها كقصيدته الرائعة «البحر موعدنا» والتى كنت أسميها أنا «جازف» والتى يقول فيها:

البحر موعدنا
وشاطئنا العواصف،

جازف،
فقد بَعُد القريب
ومات من ترجوه
واشتد المخالف،
لن يرحم الموجُ الجبانَ
ولن ينال الأمنَ خائف،
القلب تسكنه المواويل الحزينة
والمدائن للصيارف،
خلت الأماكنُ للقطيعة
من تعادى أو تخالف؟
جازف ولا تأمن لهذا الليل أن يمضى
ولا أن يُصلح الأشياءَ تالف،
هذا طريق البحر
لا يَفضى لغير البحر
والمجهول قد يَخفَى لعارف،
جازف،
فإن سُدَّت جميع طرائق الدنيا
أمامك فاقتحمها لا تقف
كى لا تموت وأنت واقف

وقرأت «أمل دنقل» ذلك الشاعر الجنوبى الذى أعتبره من أكبر الشعراء الذين استلهموا التراث فى رسم صور شعرية لامثيل لها، منها هذه الصورة لزرقاء اليمامة:

أبى لا مزيد!!

أريد أبى.. عند بوابة القصر
فوق حصان الحقيقة
منصبا من جديد
ولا أطلب المستحيل ولكنه العدل

وقصيدته الخالدة التى كان يخاطب فيها الرئيس السادات «لاتصالح» بافتتاحيتها التى لا أظن أن لها مثيلًا فى التشبيه العبقرى الذى بدأ به القصيدة:

لا تصالح..
ولو منحوك الذهب
أتُرى حين أفقأ عينيك
ثم أثبت جوهرتين مكانهما..
هل ترى..؟
هى أشياء لا تشترى

وفى فقرة رائعة منها يقول:
إن سهمًا أتانى من الخلف
سوف يجيئك من ألف خلف
فالدم ـ الآن ـ صار وسامًا وشارة
لا تصالح
ولو توجوك بتاج الإمارة
إن عرشك سيف
وسيفك زيف
إذا لم تزن بذؤابته لحظات الشرف
واستطبت الترف

وله قصيدة وهو فى مرضه الأخير وهو فى المستشفى، شفافة كلون النهار، عميقة بقدر عمق نفس تجهزت للقائها المرتقب مع الله يقول فيها:

فى غرف العمليات
نقاب الأطباء أبيض
لون المعاطف أبيض
تاج الحكيمات أبيض... أردية الراهبات
الملاءات
لون الأسرة.. أربطة الشاش والقطن
قرص المنوم.. أنبوبة المصل
كوب اللبن
كل هذا يشيع بقلبى الوهن
كل هذا البياض يذكرنى بالكفن

وفى هذا الفترة لم أترك شاعرًا إلا وقرأت له، سواء من الشعر العمودى أو الشعر الحر، وكنت مهتمًا جدًّا بالشعر.

وكانت لى محاولات مهمة فى مجال كتابة الشعر، لا أستطيع أن أقول إننى كنت شاعرًا، ولكن كانت محاولات تنبئ عن موهبة يمكن أن تخرج شاعرًا يقول شيئًا، لكن توقفت التجربة على أعتاب مشاغل الحياة وإن ظلت الصلة كائنة بينى وبين الشعر على أنها ترويحة فى ظل حر أيامنا. من هذه المحاولات كتبت إلى «سناء محيدلى» شهيدة الجنوب اللبنانى وأول من نفذت عملية فدائية ضد الجيش الإسرائيلى وكان سنها سبعة عشر عامًا، وطلبت فى وصيتها أن تُسمى «عروس الجنوب» فكتبت عنها بعنوان «مد اليدا»:

مد اليدا
قَبِّلى وجهَ الردى واحضنيه
لملمى ثوبَ العروبة طرِّزيه
بأحرف مبعثرة
ولتكتحل عيناكِ بالرصاص والقصاص ولتشرب الدما
نخبا على صدر الأمير
واتركيه ياسنا
يغزل الليل ثوبًا يرتديه
يقتلُ الصبح فى بطنِ السما
الصبحُ جاء واهنًا
فى الدروب ينكسر
لاتحزنى الصبح جاء
فلتلبسى ثوب الزفاف

وهذه زفرة من زفرات الحب لوطن أحبه وأعشقه، أعبر بالكلمات عن هذا الشعور المتدفق السَّيَّال الذى ملك علىَّ جوانب نفسى حين كتبت:

صباحُ الخير يا وطنى
يا وطنى صباحُ الخير
أقول بكل حروف النور يا وطنى... أحبك
أردد بين العين والقلب يا وطنى... أحبك
أُجريها على شفتَّى وفى ذَرا قلبى وأعماق وجدانى... أحبك
فى صحوة الفجر

فى غبشة الليل
وفى الأسحار يا وطنى... أحبك
أطرز بها ثوبى
أُعلقها عقدًا من الماس فى عنقى
وأستلقى
على صدرك الحانى
أشاهد روعة الحلم
دعينى أقول بكل حروف النور يا وطنى... أحبك

وفى تجربة الزواج والحب القاسية التى حكيتها بما تضمنته من تعب وعنت، كانت هذه الصورة الشعرية بعنوان «تحتضن الإنسان»:

محفورٌ اسمى فى إصبع يدها اليمنى
بحنين القلب المخبوءة فيه الكلمات
تلفنا الموائد، المدائن، البشر
نرقبُ نقطة السقاء من فم الزمن
نعدو عَدَوَ طفلين لم يعرفا غدَر الزمن
أتبَّوأ مِقعدِ تلميذٍ
أتعلم من عينيها أكتب شعرًا
أرسم صورتها بالكلمات
من قبضة يدها
أتحسسُ أجنحة، تخلق، تزرع
فى روعة حب يجمعنا
وفؤاد أرقبه ينبض فى المرآة

تتدحرج فوق لسان القلبِ الكلمة
تتقوقع فى دنيا الآه
لكن.. تمشى فوق لهيب الأشواك
تبحث عن أحرفها الثكلى
تبغى قلبًا..
تحتضن الإنسان
وأنا..
أحتضنك بين هدير الصامت ووشوشة الحلم
أحتضن الإنسان
1990

وهذه قصيدة كنت قد كتبتها لقصة عايشتها لبنت أعطت الحب والإخلاص ولم تجد إلا الجحود ردًا على ما قدمت، فكانت هذه القصيدة بعنوان «انتصار»:

دمعتان
دمعة للعلا
ودمعة لاستباحة الظلاُم للنهار
وأنت ترقبين مقلتيه انكسار فى انكسار
زهوُر خديك تلفظه
طائرُ القلب يرتضيه باستكانة الذبيح
شروقُ وجهك ينطفئ
وأنت ترقبين مقلتيه
فكنت نوَرسا حزينًا

تداعبُ الهموم وجنتيه
وأنت ترقبين مقلتيه
يُطل من نوافذ الضمير ديدبان
يفوح الأقحوانُ من رضاب روعة الحياة
ينام فى دروبك الوضيئة الأمل
فصحت لمن يريد الذبح لا
لن أموت
واغرورقت عيناك من دموع الانتصار
1990

وكثيرٌ من هذه المشاعر التى ترجمتها معان وكلمات فى هذه المحاولات كنت أعبر فيها عن مواقف عشتها فى حينها، ولا أستطيع أن أدعى أننى شاعر، وإنما هى تعبير صادق عن مرحلة مهمة من مراحل الحياة خاصة، وقد تعددت مقاصدها وتنوعت اهتماماتها بين الشخصى الذاتى والقومى والدينى، وهى تعبير أيضًا عن تفاعل حقيقى بينى وبين المجتمع سواء من الناحية الذاتية الشخصية أو من النواحى الأخرى التى كانت مثارًا لاهتمامى.. وهذا يعبر من ناحية أخرى عن انفتاح على العالم ونتيجة طبيعية لتربية وتنشئة قامت على أنك مسئول وأنك شخص عادى، مطالب بأن تعيش الحياة بكل ما فيها ومطالب بأن تبحث فى نفسك عن قدرات ومواهب قد تساعدك فى رحلتك، ليس من الناحية المادية فحسب ولكن فى الدفع المعنوى الذى يحس فيه الإنسان أنه ذو فاعلية لنفسه وللناس..

وفى هذه الأوقات كنت أيضًا مهتمًا بالحياة الفكرية والثقافية، وكانت

جريدة الأهرام وسيلتى حيث كانت فى عهدها الذهبى، وكنت أقرأ فيها للممثلين لجميع التيارات الفكرية. فكنت أقرأ للمفكر اليسارى «لطفى الخولى». وأقرأ للمفكر الإسلامى فهمى هويدى مقاله يوم الثلاثاء من كل أسبوع حيث كان قويًا فى الأسلوب والحجة، لا أنسى رده على المستشار «محمد سعيد العشماوى» وعلى غيره من مفكرى اليسار. والمقال الأسبوعى للفيلسوف الدكتور «زكى نجيب محمود» الذى كنت أجلس وحدى عند قراءته حيث كان يحتاج إلى تأمل وتدبر، وكان فى هذا الوقت يتحدث فى معظم مقالاته عن القيم التى يجب أن يحرص عليها الإنسان فى حياته، وكان يتناولها من وجهة نظر فلسفية وغالبًا ماكان ينتهى إلى قيمة إسلامية، وهى نفس فكرة كتابه المهم جدًّا «قيم من التراث». وكنت أنتظر العمود اليومى لـ«سلامة أحمد سلامة» ذلك الكاتب المحترم الذى كان يتسم بالموضوعية والتجرد والثقافة الواسعة. و«أنيس منصور» الذى كان كل يوم يأخذك فى موضوع مختلف فى شتى أنواع المعرفة. وصندوق الدنيا للكاتب «أحمد بهجت» الذى كان يطرح ما عنده بأسلوب سهل وبعبارات بسيطة لكنها معبرة، فمرة يتكلم فى الدين ومرة فى الأدب وأخرى فى الأمور الثقافية أو الاجتماعية. والأستاذ نجيب المستكاوى فى الرياضة حيث لم يكن ناقدًا فقط بل كان ناقدًا رياضيًا وأديبًا بارعًا.

وكنت أتابع السياسة من خلال مجلة روز اليوسف التى كان يبدع فيها «عادل حمودة وإبراهيم عيسى ووائل الإبراشى» وتحقيقاتهم الجريئة التى كنت أتعرف منها على وجهة النظر اليسارية فى السياسة

والفكر والفن، فكانت بمثابة نافذة أطل منها على المجتمع فى هذه الفترة.

مرحلة الشيخ الغزالى

من بداية فترة الجامعة بدأت أتعرف على هذا العالم الفذ الذى أعتبره ممن يمكن أن ينطبق عليه حديث النبى ﷺ عن المجدد للدين كل مائة عام وهو الشيخ «محمد الغزالى». فالرجل حياته كلها سلسلة من الدفاع بعلم ومنطق سليم وعقل وقاد ولسان قوى وفكرة حاضرة وكلمة مكتوبة ومنطوقة عن هذا الدين، الذى بدا بين فريقين أفرغاه من مضمونه الحقيقى.. بين من نظر إلى الدين على أنه مجموعة من المظاهر والصور والأشكال وانبرى يُكَفِّر كل من عارضه أو يبدعه، والفريق الثانى الذى لايريد الدين فاعلًا فى دورة الحياة فأراد أن يسجن الدين بين جدران البيوت أو فى ساحات المساجد فحسب، فأطلق شيخنا الغزالى لسانه وجنانه على الفريقين فى مشروعه التجديدى للإسلام الذى يقوم على رفع الغطاء عن المفهوم الحقيقى لهذا الدين العظيم، باعتباره محركًا أصيلًا للإنسان إلى حيث تكون سعادته وإلى حيث تكون ريادته، ليس بما كان عليه الأجداد ولكن بما يمكن أن ننتجه نحن من فكر وعمل.

قرأت معظم كتب الشيخ الغزالى فى فترة الشباب، فترة الجامعة وما بعد الجامعة. ومن أول ما قرأت له كتاب كتبه وهو لم يزل طالبًا فى كلية أصول الدين عام 1948 ـ قبل ثورة يوليو فى فترة الملكية ـ وهو كتاب «الإسلام والاستبداد السياسى» يتحدث فيه عن تجربة شخصية لفترة اعتقاله من

النظام الملكى، ويقول فى نهاية فصل من فصوله بعنوان «مكمن الداء»: «إن تنظيف العالم الإسلامى من الغرور والغش والادعاء ومن السرقة والنهب والاستعلاء كفيل باجتثات جذور الاستبداد وإراحة الدين والدنيا من ويلاته».

وأذكر أننى قد قرأت للشيخ الغزالى كتابين استعرتهما من أحد الأصدقاء كان قد جلدهما فى مجلد واحد وهما كتاب «التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام» وكتاب «قذائف الحق». تناول فى الكتاب الأول العهد القديم وما حوته نصوصه بموضوعية وبقراءة تحليلية تبين للقارئ مدى البون الشاسع لحديث القرآن والعهد القديم عن الله والأنبياء وكيف أن من وصفه القرآن من الأنبياء، وهو «لوط عليه السلام» أنه من المتطهرين قد صوره العهد القديم من التوراة بأنه زنا بابنتيه وانجب منهما، يتضمنه التلمود من دعوة صريحة للقتل ولسفك الدماء. وفى كتاب قذائف الحق، تناول بعض الأمور الخاصة بحرية المرأة وحذر ممن يريدون للمرأة أن تتحرر على طريقتهم، وبين أن الإسلام قد ضمن للمرأة حرية كاملة فى التعليم وفى الوعى وفى الوصول إلى المناصب.

ومن كتبه التى درستها بعمق وإحاطه أثناء إعدادى برنامج «قطوف من السيرة» كان كتاب «فقه السيرة». وكان الكتاب يتناول الحدث من السيرة ثم يسقطه على واقع المسلمين، وأذكر هذه العبارة البليغة التى كتبها فى مقدمة هذا الكتاب يقول فيها: «إن المسلم الذى لا يعيش الرسول فى ضميره ولا تتبعه بصيرته فى عمله وتفكيره لا يغنى عنه أبدًا أن يحرك لسانه بألف صلاة فى اليوم والليلة».

وله كتابان شكلا عندى النظرة إلى العقيدة والأخلاق غير الصورة

التى كان بعض الدعاة يُعَقِّدها ويجعلها أمر صعب ويكاد يكون مستحيلًا، الكتاب الأول «عقيدة المسلم» والكتاب الثانى «خلق المسلم». ففى الكتاب الأول يبدى رؤيته فى عرض العقيدة فيقول: «وقد كنت أرقب ما تخلفه دروس التوحيد من كتبه المقررة، فما كنت أرى فارقًا يذكر لدى السامعين بينها وبين شروح المعادلات الجبرية، فكلاهما ترويض للعقل مبتوت الصلة بالفؤاد، فكأن الطالب يذكر طائفة من الأدلة على الوجود الدائم «واجب الوجود» ولايستشعر فى قرارة نفسه عظمة الخالق المتعال أو يختلج فى بدنه عرق من الرغبة أو الرهبة نحو من سواه وألهمه فجوره وتقواه.. أفهكذا تدرس العقيدة»؟! ثم يناقش فى الكتاب مسائل العقيدة كوجود الله من خلال الآيات القرآنية الشاهدة على ذلك، ومن خلال الكون الذى نعيشه وقضية القضاء والقدر والنبوات.

ويعتبر كتاب «خلق المسلم» من أهم كتبه، ويقول عنه فى مقدمته إنه الحلقة الثانية من كتاب عقيدة المسلم، تحدث فيه فى البداية عن الخير والشر ثم تحدث عن الأخلاق التى تعتبر تطبيقًا للعقيدة، واستعان فى ذلك بأحاديث النبى فى هذا الشأن.

ومن الكتب التى يمكن أن تصفها بالكتب ذات المنزع الروحى كتاب «الجانب العاطفى فى الإسلام» وفى هذا الكتاب استوقفنى شرحه لبعض حكم «ابن عطاء الله السكندرى» بأسلوبه الذى لا يعدم البلاغة ولا الفصاحة ولا الجمال فى اختيار اللفظ والمعنى؛ فمثلًا يعلق على الحكمة التى تقول: «ما ترك من الجهل شيئًا من أراد أن يحدث فى الوقت غير ما أظهره الله فيه» فيقول: «لا تحسبن القدر يجرى وفق هواك: إن وراء الواقع الذى نَهُّش له أو نضيق به حِكَمًا عُليا تجعل

الحوادث تسير ولا صلة لها برضانا وسخطنا، وخير للمرء أن يتهم هواه من أن يسخط على الزمن».

والكتاب الممتع الذى يعتبر دستور حياة هو كتابه «جدد حياتك» الذى يعلق فيه على كتاب «دع القلق وابدأ الحياة» للمفكر والكاتب الأمريكى «ديل كارنيجى». ويقول فى مقدمة الكتاب صراحة: أردت أن أرد كتاب كارنيجى إلى أصوله الإسلامية، لا لأن الكاتب الذكى قد نقل شيئًا عن ديننا، بل لأن الخلاصات التى أثبتها بعد استقراء جيد لأقوال الفلاسفة والمربين وأحوال الخاصة والعامة تتفق فى وجوه لاحصر لها مع آيات ثابتة فى قرآننا وأحاديث ثابتة عن نبينا ﷺ. وكان منهج شيخنا الغزالى فى الكتاب أن يعرض ما قاله ديل كارنيجى ثم يعلق عليه، فمثلًا يقول ديل كارنيجى:

«1 ـ سل نفسك ماهو أسوأ ما يمكن أن يحدث لى.

2 ـ ثم هىء نفسك لقبول أسوأ الاحتمالات.

3 ـ ثم اشرع فى إنقاذ مايمكن إنقاذه».

ثم يعلق الشيخ الغزالى فيقول: وهذه خطة يوصى العقل والدين معًا باتباعها، وفى أدب العرب ذخائر لاتحصى عن شجاعة الرجال فى استقبال المحن وعن حرصهم على الخروج منها مخرجًا لايخدش المروءة والشرف.

وكثيرة هى كتب هذا الرجل التى اقتنيتها أو استعرتها للقراءة حتى كان كتابه الأخير «السيرة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» الذى كان صفعة على وجه المتشددين فيما لايجوز فيه التشدد، ولكمة فى وجوه من أرادوا التخلى عن عقولهم فى فهم هذا الدين العظيم، وصيحة من عالِم

يرى هذا الدين مَخَتطفًا من جماعات تريد أن تسجن هذه السعة التى تجعل حياة الناس أكثر حرية دون أن يكون هناك خروج على أصوله وقواعده. ففى هذا الكتاب تحدث عن مسائل خاصة بالنساء وخاصة النقاب، الذى قال فيه بعدما أورد عشرة أدلة على أنه ليس من تعاليم الإسلام سواء من القرآن أو السنة فقال:

«وبعد هذا السرد نسارع الى التنبيه بأن المجتمع الإسلامى بما شرع الله له من آداب اللباس والسلوك العام هو شىء آخر غير المجتمع الأوروبى بشقيه الصليبى والشيوعى، فإن هذا المجتمع أدنى إلى الفكر المادى البحت وأقرب إلى الإباحة الحيوانية المسعورة..

إن الملابس هناك تُفَصَّل للإثارة لا للستر، وللتزين للشارع لا للبيت، والاختلاط لا يعرف التصون أو تقوى الله، والخلوة ميسورة لمن شاء، والقانون لا يرى الزنا جريمة ما دام بالتراضي!! وتكاد الأسر تكون حبرًا على ورق..

إن الإسلام شىء آخر مغاير كل المغايرة لهذا الاتجاه الطائش الكفور، فهل أحسنا نحن بناء المجتمع القائم على حدود الله؟

إننا قدمنا للإسلام صورًا تثير الاشمئزاز، وفى خطاب لأحد الدعاة المشاهير قال: إن المرأة تخرج من بيتها للزوج أو للقبر! ثم ذكر حديثا: إن امرأة مرض أبوها مرض الموت فاستأذنت زوجها لتعوده فأبى عليها! فلما مات استأذنته أن تشهد الوفاة وتكون مع الأهل عند خروج الجنازة فأبى... قال الخطيب: فلما ذكرت ذلك لرسول الله قال لها: إن الله غفر لأبيك لأنك أطعت زوجك!!. أكذلك يُعرض ديننا؟ سجنًا للمرأة تقطع فيه ما أمر الله به أن يوصل؟..

وجاءتنى رسالة من طالبة منعها أبوها من الالتحاق بالجامعة، قالت: إن أبانا يقول لى ولأخواتى البنات: «إن الله دفنكم أحياء، فلا أترككن لما تردن من خروج»!. هذا فهم الأب الأحمق لآية: «وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى...».

وفى مسألة الفنون والغناء قال كلامًا كثيرًا ومهمًا، وسأختار منها حوارًا بينه وبين أحد طلابه فى مكة المكرمة أراه رأيًا له يجب أن يعرفه كل مسلم، قال:

«وأذكر أنى عندما كنت مدرسًا بمكة المكرمة، جلست سأمان فى بيتى يومًا أعانى من بعض المتاعب، فقلت: أتسلى عن همومى بشىء، وفتحت الراديو وسرنى أن كانت به أغنية أحبها.

وما كدت أمضى مع الأبيات والألحان حتى طرق البابَ طالبٌ أُشرف على رسالته!.وخيل إلىَّ أنى استطيع السماع مع وجوده، ولكنه أقسم عَلَىَّ أن أغلق الراديو!.

ورأيت إكرامًا له أن ألبى رغبته، وأكملت وحدى بعض كلمات الأغنية:

أين مما يُدعى ظلامًا يا رفيق الليل أينا؟

إن نور الله فى قلبي! وهذا ما أراه!

وصاح الطالب: ما هذا؟ قلت له: كل يغنى فى الأنام بليلاه، إننى أعنى شيئًا آخر!

قال: أما تعلم أن الغناء حرام كله؟ قلت له: ما أعلم هذا...!

ثم أقبلت عليه بجد أقول له: إن الإسلام ليس دينًا إقليميًا لكم وحدكم، إن لكم فقهًا بدويًا ضيق النطاق! وعندما تضعونه مع الإسلام فى كفة واحدة، وتقولون: هذه الصفقة لا ينفصل أحدها عن الآخر، فستطيش كفة الإسلام وينصرف الناس عنه.

وهذا ظلم كبير لرسالات الله وهداياته!!

قال: كيف؟ قلت له: تستطيعون إعلان حرب شعواء على الغناء الوضيع، وستجدون من يؤيدكم من أهل الأرض! أما الزعم بأن الإسلام حرب على الفن كله خيره وشره فلا!

إن أهل القارات لهم غناء يجتمعون عليه، فميزوا الخبيث من الطيب ثم دعوا لهم ما يستحبون.

وكتبت الأستاذة المهدية «مريم جميلة» فصلًا عن الإسلام والفنون فى كتابها «الإسلام فى النظرية والتطبيق» وذكرت أن الأوروبيين يحترمون احترامًا بالغًا «بتهوفن» و«باخ» فى الموسيقى و«فردي» و«واجنر» فى الأوبرا و«شكسبير» فى المسرح.. إلخ. ويلقبونهم بالسادة العظام، ويعتبرون تكريس الحياة لأى فرع من هذه الفنون الجميلة من أشرف المقاصد وأكثرها جَدًّا!!

قالت: وإذ عرفت موهبة شخص ما بالتفوق الفنى ـ وغالبًا ما يقع ذلك بعد سنوات من رحيله ـ حسب فى زمرة العظماء الخالدين. ويحقق الروائيون التقليديون خلودهم الفنى عندما تطبع كتبهم مرات ومرات وتمتدح على أنها أعمال أدبية عظيمة يلزم كل طالب فى المدارس أن يدرسها.

ويخلد مؤلفو الموسيقى السمفونية والأوبرا بأداء إنتاجهم مرارًا

وتكرارًا فى قاعات الاحتفالات العظمى فى المدن الكبرى، كما يكرم أعظم المغنين والعازفين بتسجيل أعمالهم على الأشرطة والاسطوانات.

قلت لنفسى: ما المنهاج الإسلامى الذى أقدمه لهذه الأوساط؟ هل أطلب منهم إلغاء الفنون الجميلة جملة وتفصيلًا؟

علامَ أعتمد فى هذا الطلب؟ على جملة من الأحاديث الواهية والموضوعة لا وزن لها فى مجال التمحيص العلمي؟.

إننى عندما أفعل ذلك أكون كأبى العلاء المعرى الذى قال لكل إنسان:

غَدوَتَ مَرِيضَ العَقلِ والدينِ فالقنى ... لتسمعَ أنباءَ الأمورِ الصحائِحِ؟

فلا تَأكُلَن ما أَخرَجَ الماءُ ظالِما ... ولا تَبغِ قوتًا من غَريضِ الذبائِحِ

فلما التقى الناس به واستمعوا إليه رأوه نباتيًا يعرض الأمور الصحيحة عنده على أنها ترك أكل السمك واللحم!

إننى أطلب من الأوروبيين وغيرهم ترك التجسيد والتعديد لإصلاح عقائدهم، فهل أضع عائقًا أمام هذا الإصلاح الخطير بدعوتهم إلى ترك الغناء والموسيقى؟ فما يكون موقفى من قوله تعالى فى كتابه المصون: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (سورة يونس).

أستطيع أن أحرم نحت التماثيل، أستطيع أن أحرم كل صورة عارية،

أستطيع أن أحرم الرقص مفردًا ومزدوجًا، إن هذه فنون رديئة وليست فنونًا جميلة...

أستطيع أن أبرز الضوابط الإسلامية لسلوك الأفراد مهما كانوا عباقرة، فالعبقرى فى أى علم أو فن يجب أن يستشعر نعم الله عنده، وأن يكون أتقى لله وأحفظ لحدوده، وأرعى لحقوقه من الآخرين».

وللأسف هذا الكلام هوجم عليه الرجل وارتفعت الحناجر على المنابر وفى غير المنابر نيلًا منه وسوء أدب معه.

ومما أورده من أمراض للمجتمع دفاعًا عن هذا الدين الذى أصبح مطية لبعض المنتفعين به على غير ما يريد الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهى مسألة شاعت فى المجتمع المصرى، ما يشيع عن تأثير الجن فى الإنسان حتى قالوا إنه يدخل داخل الإنسان ويتكلم بلسانه، مما يروج له من فقد عقله منهم أو من يريد أن يسرق أموال الناس بهذه الطريقة، وهنا شَخَّصَ الشيخ الغزالى هذا المرض المستشرى فكتب فى هذا الكتاب وفى مفتتح كلامه عن هذا الموضوع وقال:

«طرق بابى رجل يقول إنه بحاجة الى عونى، فقمت لاستقباله وأنا متعب، ودهشت لمرآه، فقد كان عملاقًا بادى الصحة، ولم تكن عليه سيماء الفقر!..

وبدأنى بالحديث من غير مقدمات! قال: إنه مسكون..!! واستعدت ما قاله، فكرر شكواه مؤكدًا أنه مسكون! قلت من سكنك؟ قال: جنى عات غلبنى على أمرى..!!

فقت وأنا أضحك: لماذا لم تسكنه أنت؟ إنك رجل طويل عريض؟ فسكت حائرًا..

وأخذت أتأمل فى ملامحه وحالته العامة ثم قلت: ما أظنك مريضًا بالصرع، أتعتريك نوبات ما؟ فلم يزد على القول بأنه مسكون..

إن عددًا كبيرًا من النساء. وعددًا قليلًا من الرجال يجيئنى بمثل هذه الشكاة، وكنت أبذل شيئًا من الجهد فى تثبيت القَلِق وتسكين الحائر وإعادة الاستقرار النفسى والفكرى إلى هذا وذاك..

وشعرت بأن الأزمات الروحية والاضطرابات العصبية من وراء الادعاء بأن الجن تحتل هذا الجسد أو تحتك بهذا البائس، وربما استعنت ببعض الرقى والتلاوات والنصائح لجعل أولئك المرضى أحسن حالًا، وأن تبيد أوهامهم شىء يطول.

وتحدث معى بعض أهل العلم الدينى، وكأنهم رأوا إنكارى على أولئك المرضى، وقالوا: لماذا ترفض فكرة احتلال الشياطين لأجسامهم؟

كان جوابى محددًا: لقد شرح القرآن الكريم عداوة إبليس وذريته لآدم وبنيه، وبيّن أن هذه العداوة لا تعدو الوساوس والخداع ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾.

وليس يملك الشيطان فى هذا الهجوم شيئًا قاهرًا، إنه يملك استغفال المغفلين فحسب: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ ﴾ (سورة الإسراء).

وقد تكرر هذا المعنى فى موضع آخر: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾ (سورة سبأ).

إن الشيطان لا يقيم عائقًا ماديًا أمام ذاهب إلى المسجد! ولا يدفع سكرانًا فى قفاه ليكرع الإثم من إحدى الحانات! إنه يملك الاحتيال والمخادعة، ولا يقدر على أكثر من ذلك...

قال لى أحدهم: هذا صحيح، لكن ما أوردته لا ينفى أن بعض المردة قد يساور بشرًا مسلمًا وينال منه..! قلت: وأنا ضجر: هل العفاريت متخصصة فى ركوب المسلمين وحدهم؟ لماذا لم يشك ألمانى أو يابانى من احتلال الجن لأجسامهم؟

إن سمعة الدين ساءت من شيوع هذه الأوهام بين المتدينين وحدهم. إنكم تعلمون أن العلم المادى اتسعت دائرته ورست دعائمه، فإذا كان ما وراء المادة سوف يدور فى هذا النطاق فمستقبل الإيمان كله فى خطر. فلنبحث علل أولئك الشاكين بروية، ولنرح أعصابهم المنهكة، ولا معنى لاتهام الجن بما لم يفعلوا..!!».

ولقد أصاب الرجل مايصيب من يكون شجاعًا فى عرض نتاج العقل فى النظر والاجتهاد، لذا فهو يعبر عن ذلك فى صدر الطبعة السادسة لهذا الكتاب حيث قال فيها:

«وقد شتمنى بعض الناس فوجدت الإعراض أولى! ومن من الأنبياء لم يُشتم؟ فليتأس أتباعهم بهم فى الصبر والتجاوز..!

قـالـوا: الإلـه ذو ولـد! قـالـوا الـرسـول قـد كهنا!

مـا نجا الله والـرسـول معًا من لسان الـورى، فكيف أنا!

لكن الشتم الذى أوجعنى اتهام البعض لى بأنى أخاصم السنة النبوية!!

وأنا أعلم أن الله ورسوله أحب لىَّ مما سواهما، وأن إخلاصى للإسلام يتجدد ولا يتبدد، وأنه أولى بأولئك المتحدثين أن يلزموا الفقه والأدب..

فغايتى تنقية السنة مما قد يشوبها! وغايتى كذلك حماية الثقافة الإسلامية من ناس قيل فيهم: إنهم يطلبون العلم يوم السبت، ويدرسونه يوم الأحد، ويعملون أساتذة له يوم الأثنين، أما يوم الثلاثاء فيطاولون الأئمة الكبار ويقولون: نحن رجال وهم رجال!!

وهكذا بين عشية وضحاها يقع زمام المسلمين الثقافى بين أدعياء ينظر اليهم أولو الألباب باستنكار ودهشة.

وإذا كان هؤلاء لم يرزقوا شيوخًا يُرَوِّنهَم، أو أساتذة يثقفونهم فسوف تربيهم الأيام والليالى وما أحفلها بالعجائب..!!».

ومازلت أقول إن تأثير هذا العالِم الربانى ذى العقل النابه والقلب النورانى واللغة القوية الموحية والبرهان الساطع هو أعظم التأثيرات التى شهدها عقلى وفكرى، لدرجة أننى كنت أبحث عن أية شاردة أو واردة عنه فى فكره وعلمه. وأذكر أننى قد حضرت له مناظرتين، أولهما كانت فى دار الحكمة فى أواخر الثمانينيات من القرن الماضى وكانت بينه وبين الدكتور فؤاد زكريا، والثانية كانت بينه وبين فرج فودة، والحقيقة أننى الآن عندما أنظر إلى هذه المناظرات أجد أنها لم تكن ذات فائدة ترتجى لمن يستمعونها أو يشاهدونها، ذلك أن طابع الفوز والخسارة هو الذى كان يحكمها آنذاك، وكنا نذهب إليها وكأننا نذهب لمشاهدة معركة حربية وليس لمشاهدة حوار عقلى بالعقل والفكرة. لأن الأجواء وقتها كانت توحى بذلك.

لكنى بعد المناظرة مع الدكتور «فؤاد زكريا» قرأت كتابه الذى أنصح بقراءته كل من يريد أن يتعرف على كيفية التفكير العلمى وهو كتاب «التفكير العلمى». وأيضًا كتابه «حكمة الغرب» فى جزئيه، والذى عرض فيه لتاريخ الفلسفة الغربية. وبعد قراءة هذه الكتب بالإضافة إلى مقاله الأسبوعى فى الإهرام كنت أختلف معه فى شىء وهو الخاص بالترويج للعلمانية وأتفق معه فى أشياء كثيرة بعد ذلك؛ كطريقة التفكير الصحيح والتفكير العلمى الذى يؤدى إلى نتائج سليمة. وهكذا مع كل المختلفين، تقبل منه وترد وتناقش وتحاور وتختلف لكن فى جو من الاحترام والتقدير.

سيرة ومسيرة.. فى رحاب عقول مصر الكبيرة

فى هذا البرنامج «سيرة ومسيرة» التقيت مع مجموعة من المفكرين الذين يحمل كل منهم رؤية علمية أو فكرية فى الإصلاح، بل ويمثل كل منهم حالة نادرة من التفوق العلمى أو الفكرى كل فى مجاله، يمكن أن تتفق أو تختلف مع الطرح لكن لا يمكن إلا أن تُعجب بقصة النجاح الرائعة لكل منهم ذلك لأنها رحلة مع التعب والسهر والقراءة والبحث حتى وصل كل منهم إلى هذه المكانة.

وسأبدأ بشخصية الدكتور «محمد فريد المليجى» هذا الرجل الذى اصطلح مع الإيمان بالله فتآلفت روحه مع التقى، خاصم اليأس وصادق الأمل وعانق التفاؤل ورجم الفشل وزامل النجاح، يجلس على كرسى متحرك منذ حوالى ستين سنة، فقد أصيب فى طفولته بشلل رباعى لم يترك إلا يدين تتحركان. وبعد سفره إلى ألمانيا فى نهاية الخمسينيات للعلاج عاد

ليكتب منظومته فى الإرادة الحية والعزيمة الفذة والنجاح المبهر، ويكون متفوقًا على نفسه وعلى عجزه وعلى نظرات التيئيس والتقنيط، ويحتل المراكز الأولى فى كل مراحل تعليمه.

التحق بكلية الصيدلة التى يتصور البعض أنها عصية على مثله، وأصبح معيدًا وحصل على الماجستير والدكتوراة وأجرى الأبحاث اللازمة، حتى أصبح أستاذًا ورئيس قسم الصيدلة الصناعية وصاحب فكرة إنشاء أول مركز للكمبيوتر فى كلية الصيدلة جامعة القاهرة، والذى عُمم بعد ذلك فى بقية كليات الصيدلة فى مصر لنجاحه المبهر بفضل هذا النابه العبقرى. ثم انتقل عميدًا لكلية الصيدلة بجامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا، ليترك فيها أثرًا لايُمحى من العلم والأخلاق والأدب والحنان الأبوى لطلبته.

عند زيارتى له فى جامعة مصر، كان أهم ما استشعرته فيه هو هذا الرضا عن الله سبحانه، حتى لتخال أن وصف الله سبحانه للمؤمنين: «رضى الله عنهم ورضوا عنه» قد نزل فيه هو، فهو دائمًا فى تمام الرضا، فهو راض عن ربه وراض عن نفسه وراض عمن حوله ممتنًّا لهم، ويظن دائمًا أنه مقصر فى شكره لله وهو اللاهج دائمًا بتمتمات شكره وصيغ حمده سبحانه!!

أذهب إليه لأملأ نفسى من معين الرضا عنده، وأنهل من فيض أخلاقه وأقترب من سياج إيمانه الذى شيده بقلبه النقى التقى.

ومن ضيوفى الآخرين من هذا البرنامج فى مجال التربية كان العلامة الأستاذ الدكتور «سعيد إسماعيل على».

الذى أنشأ أول قسم للتربية الإسلامية فى كليات التربية على مستوى العالم العربى والإسلامى، وأسهب معى فى البرنامج فى الكلام عن هذا الموضوع. من خلال كتابيه اللذين يجب أن يكونا العمدة والمرجع فى هذا الموضوع الكتاب الأول «القرآن الكريم دراسة تربوية»، والكتاب الثانى «السنة النبوية دراسة تربوية». ثم استضفنا تلميذه العبقرى الأستاذ الدكتور «مصطفى رجب» أستاذ التربية والمفكر الكبير والشاعر الذى حصل على رسالتين للدكتوراه درس فيهما الأدب والتربية والدين، وأصبح مبرزًا وعالمًا كبيرًا فى هذه المجالات، وله رؤية فى نظام للتربية والتعليم يختلف تمامًا عن هذا النظام الذى لايراعى تربية ولا ينشئ متعلمًا.

والشخصية الثانية العلامة الكبير الأستاذ «الدكتور محمد السيد الجليند» أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، صاحب مجموعة من الكتب ترفع اللثام عن قضايا الفلسفة وتعطى للفلاسفة المسلمين حقوقهم من حيث العطاء الحضارى للإنسانية كلها وللعرب والمسلمين خاصة. وهو دائمًا ما يقول فى مؤلفاته: «بحثنا ماذا قال ابن سينا فى الفلسفة ولم نبحث ابن سينا الطبيب والكيميائى والفلكى، وقرأنا الرازى فيلسوفًا ولم نقرؤه طبيبًا ولا فلكيًا ولا عالمًا، وعرفنا ابن رشد الفيلسوف المتكلم ولم نعرفه عالمًا بالطب والكيمياء والعلوم «الطبيعية».

وقد انتصر الدكتور الجليند فى كتاب من أهم كتبه للإمام ابن تيمية ضد الفلاسفة، والكتاب بعنوان «قضية التأويل عند ابن تيمية» وقال إن ابن تيمية اعتمد على القرآن فى أمور السمعيات فى حين أن الفلاسفة

قد حذو حذو الفلاسفة الغربيين فى هذه الأمور، مما دعا واحدًا من علماء المسلمين وهو «أبو حامد الغزالى» إلى تكفير بعض الفلاسفة، وفى ذات الكتاب أثبت بأكثر من عشرين دليلًا من كلام «ابن تيمية» نفسه أنه لم يكفر أحدًا من أهل القبلة وأن من يَدَّعون أنهم يُقتلون من جماعات التكفير باسم ابن تيمية هم كاذبون لم يقرؤوا ابن تيمية قراءة صحيحة، وأشهد أننى قد تأثرت كثيرًا بهذه الشخصية المفكرة صاحبة العقل الوافر فى الإبداع والتفكير شخصية الأستاذ الدكتور محمد السيد الجليند.

وبقيت شخصيتان لابد أن أتكلم عنهما. شخصية الفيلسوف الذى قرأ القرآن وحفظه فى طفولته وقرأ التراث العربى والإسلامى قراءة واسعة ثم درس الفكر الغربى والفلسفة الغربية، فجمع بين الاثنين، وها هو يضع تصورًا للنهضة العلمية والفكرية من خلال مجموعة من الكتب، الأستاذ الدكتور «محمد عثمان الخشت» رئيس جامعة القاهرة، الذى عرفته وهو نائبًا لرئيس جامعة القاهرة وقرأت كتبه فى «فلسفة الدين» وتصوره للفلسفة والدين وكيف ننظر إلى هذا الفرع المهم من فروع المعرفة والذى أصبح أحد أهم أعلامها الآن.

وسأتوقف عند كتابين من أهم كتّب د. الخشت لكى أنقل منهما مايمكن أن يكون خير تعريف بهذه الشخصية النابهة وهذا الفيلسوف الذى قال عنه الأستاذ الدكتور حسن حنفى: «كأن روح الفارابى تبعث من جديد».

فمن كتابه «أخلاق التقدم» نورد هذه المقتطفات لنرى إلى أى حد وضع هذا الكتاب الأسس العملية والنظرية لتقدم حقيقى وصل إليه

غيرنا بمنهج يعرفه كل من يريد أن يكون فى ركاب الدول المحترمة، ومن هذه الفقرات:

يكتب الفيلسوف أ. د محمد عثمان الخشت فى ص 93 من الكتاب قائلًا: «ويبدو أن هذا ـ من وجهة نظرى ـ قَدَر كل دين، عندما ينسى أتباعه فى عصور الانحلال والتراجع الطبيعة الأصلية والمقصد الحقيقى له. ولهذا نجد بعض الأنبياء كانوا يدركون خطر تحول الدين عن أصله إلى شكليات، ويخشون من البدع التى تفقد الدين جوهره، وتتحول فيه الوسائل إلى غايات والنوافل إلى فروض والشكليات إلى أركان. ويتجلى هذا بوضوح مع محمد ﷺ، شريطة أن نفهم أن تحذيره كان من البدع فى مجال العبادات، وليس من الإبداع فى مجال الحياة. ولذا فإنه فى الوقت الذى حذر فيه من الأولى دعا إلى تجديد الدين فى جانبه المتعلق بالحياة، بغية تخليص الدين من العنصر التاريخى ذى الطابع المؤقت الجزئى والعرضى، مع الأخذ فى الاعتبار «السنة» أو «العبرة» بما هو دائم وكلى وجوهرى على ما يتجلى من المفهوم المطروح فى القرآن. ولا شك ـ من وجهة نظرى ـ أن الدين ينحرف عن طبيعته النقية ويغيب مقصده الكلى ويفقد مضمونه نتيجة خيانة أتباعه وتغليبهم للمصلحة الذاتية، فيحولون الدين إلى سلطة ومؤسسة وكهانة تحت ضغط الصراع الاجتماعى أو السياسى أو حتى صراع الإيديولوجيات. لكن هذا لا يسحب البساط ـ من وجهة نظرى أيضًا ـ من تحت أقدام الدين الأصلى، ولا يلغى مشروعيته، ولا يقضى على ما هو دائم وكلى وأخلاقى ونبيل فيه».

وفى نهاية الفصل الخامس المعنون «أخلاق التقدم والحد الأدنى الأخلاقى» ص 127 يقول «إن مجتمعنا فيه كثير من القوانين، لكن الناس

تحتال عليها، لأنه لا توجد أخلاق حقيقية، رغم أن من المفترض أن الناس يؤمنون بالله، لكن حتى الإيمان يحتالون عليه ويبررون أفعالهم بطريقة غريبة من أجل تحقيق مطامعهم الخاصة التى تعيق التقدم العام! فعندما يعمل كل فرد من أجل مصلحته الضيقة التى تتعارض مع مصلحة الجميع لا يمكن أن تأمل أى دولة فى التقدم، لاسيما إذا كانت هذه فلسفة الفرد بصرف النظر عن موقعه كمواطن عادى أو صاحب منصب أو من أهل السلطة»!

وتبقى بضعة تساؤلات جوهرية: كيف يمكن صوغ واجبات هذه الأخلاق فى مصطلحات محددة؟ وعلى أية أسس يتم إصدار أحكام معيارية ملموسة يخضع لها الجميع دون استثناء بسبب المال أو السلطة؟ وهل يجب على المرء البدء من الصفر مع الاحتكام إلى العقل النقدى المستقل؟ أم يمكن للتقاليد الدينية والأخلاقية العظيمة طرح نقاط التقاء من أجل صوغ أخلاق تقدمية؟

للإجابة عن هذه التساؤلات يقول الدكتور «محمد عثمان الخشت» فى كتابه (ص 133) «الجهاد الأكبر» هو إعمال أخلاقيات التقدم وحمايتها عن طريق تطبيق القانون بصرامة ورفض الاستثناءات وإعادة القواعد إلى أصولها، بعد أن تحول الكسل إلى حق والرشوة إلى إكرامية والتشدد مع البعض إلى «إعمال للقانون» والتساهل مع البعض الآخر إلى «إعمال روح القانون». فيجب أن يسود مبدأ «لكل حسب عمله» إذا أردنا ارتقاء أول درجة من سلم التقدم، حتى نفلت من إسار أصوات الغوغاء والكسالى ومحدودى الموهبة والمهملين ممن يطالبون بالمساواة الميكانيكية التى تلغى الفروق الفردية. أخلاق التقدم تعنى تطبيق القانون ووجود

بيئة تنافسية عادلة، وإعلاء ثقافة الإنصاف وإجلال العمل والإنجاز وإصلاح النفس قبل إصلاح الآخرين.

ويستكمل الإجابة (فى ص 139) بعنوان «الإرادة المتسقة مع ذاتها» إذ يقول: «بدون فذلكة إن جماع أخلاق التقدم، بل كل أخلاق، مبدأ بسيط، إذا طبقناه سوف يتقدم مجتمعنا بلا شك، لأن هذا المبدأ البسيط سوف يقضى على الغش والتدليس والاستهتار والرعونة والإهمال وكل مظاهر أخلاق الفهلوة التى تقوم على إجادة أساليب الخداع واللف والدوران. إن هذا المبدأ هو: عامل الناس كما تحب أن يعاملك الناس.. أو بصياغة أخرى: لا ترضى للناس ما لا ترضاه لنفسك..أو بصياغة ثالثة: حب لغيرك ما تحب لنفسك..أو بصياغة رابعة: افعل للغير ما تحب أن يفعله الغير لك.. أو بصياغة فلسفية: يجب أن تكون إرادتك متسقة مع نفسها».

وفى كتابه «تطور الأديـان» الذى بحث فيه الديانات الأرضية والسماوية وأبدع فى بيان أن التوحيد بمعناه الإسلامى الخالص يختلف عن التوحيد الملغز فى الديانة المسيحية وعن التوحيد ذى الصبغة القومية كما عند اليهود، وهو يقول فى ذلك بعد استعراض الديانات السابقة للإسلام:

«أما الإسلام فيرفض كل الصور الأبوية لله، وينزهه عن مشابهة البشر أو أى شىء آخر؛ فهو: الأحد الذى لا نظير له، وهو الصمد الذى لم يلد ولم يولد، وهو ليس له كفوًا أحد، سبحانه وتعالى عما يصفون! مع العلم أن فرويد لم يتحدث عن الإسلام مباشرة، لكن تحليلاته للدين بعامة تنسحب عنده على أى دين. وهو ما نجزم بخطئه؛ لأن الإسلام رفض كل الصور الأبوية لله، مثلما صور الإله الابن (ص 66).

ثم يضيف إلى ما يتميز به الإسلام من خصوصية قائلًا:

لقد اشتمل الدين الذى يمثل الطور الملائم لإنسانية ناضجة على تحول فى منطق الاستدلال، من منطق الأسطورة إلى منطق الواقع، ومن منطق الحس إلى منطق البرهان العقلى، ومن الاستدلال بخوارق الطبيعة إلى الاستدلال بنظام الطبيعة، ومن منطق الحواة إلى منطق عدم التناقض، ومن المعجزات الحسية إلى المعجزة البيانية، ومن المعجزات المؤقتة إلى المعجزة المستمرة، ومن الكتاب الذى يلتمس دليلًا من خارجه إلى الكتاب الذى يلتمس دليلًا من داخله، ومن توحيد غامض يعتمد على التسليم إلى توحيد مطلق مستند إلى الاستدلال البرهانى، ومن منطق «آمن ثم تعقل» إلى منطق «تعقل ثم آمن» (ص 35).

أما الشخصية الثانية فهى شخصية الأستاذ الدكتور «عمرو شريف» أستاذ ورئيس أقسام الجراحة الأسبق بكلية طب عين شمس، الذى سلك فى حياته طريقًا للوصول إلى الأمان النفسى والتفوق العلمى والإبداع الفكرى وخدمة المجتمع الذى يعيش فيه وخدمة دينه وبلوغ حالة من الرضا النفسى يجب أن نهنأه عليها. فهو أخذ طريق «العلم» فى معرفة الكون والإنسان، مهتديًا بالوحى السماوى، دون أن يوضع العلم فى مقابل الوحى كما يفعل بعض المهووسين بموضوع الإعجاز العلمى ولكن له رؤية ثاقبة فى هذا الأمر.

يتبنى د. عمرو شريف إن الوحى منطقه التسليم والتصديق لثبوته وعدم تطرق الشك إليه، أما العلم فهو متغير بطبعه، فدع أهله يعملون بمنطق التغير الذى لا يُتَصَوَّر العلم بدونه ودعه يصل إلى منهاه، ولا تخف على الدين لأنه متعلق بنفس الإنسان وبروحه، وليكن عندك اليقين

أنه لا خوف على الدين، من العلم ولكن الخوف من أن تقيد العلم بمنطق الدين وهذا لايفيد العلم ولايفيد الدين.

ومن هنا أنتج الدكتور «عمرو شريف» للمكتبة العربية مجموعة من الكتب الرائعة فى العلم والفكر، من أهمها «رحلة عقل» وكتاب «خرافة الإلحاد»، و«أنا تتحدث عن نفسها» وغيرها، سنتحدث عنها بالتفصيل فى كتابنا الذى سيصدر قريبًا بعنوان «سيرة ومسيرة.

وسأنهى تناولى لشخصية الأستاذ الدكتور «عمرو شريف» ببعض فقرات من كتابه الممتع عن سيرته الذاتية بعنوان «أصداء وظلال»:

وإذا أردت اصطلاحًا جامعًا لتوجهاتى الحالية فستجدينها تدور حول مفهوم من كلمة واحدة «التعقل» وليس هذا خروجًا من حقيقة الإسلام بل هو عين حقيقته. ألم يأمرنا الله ـ عز وجل ـ فى قرآنه الكريم بإعمال العقل قرابة الخمسين مرة» (ص 89).

وقال عن والده ودوره فى حياته النفسية: «كان والدى رجلًا فاضلًا محترمًا بمعنى الكلمة، وكان رجل دولة، تعلمت منه احترام النفس وفرض احترامه على الآخرين. وكان مثالًا للرجل طاهر اليد، الذى ربى أبناءه من حلال، وكان شديد التواضع. أذكر عندما مرض يومًا، وجاء فراش مكتبه إلى المنزل ليعرض عليه أوراقًا عاجلة عرفنى والدى رئيس مجلس الإدارة بالرجل وأشار إليه قائلًا: عم أحمد زميلى فى الشركة. أحسب أن تواضع والدى الجم هو أول ما سيوضع فى ميزان حسناته يوم القيامة، والله أعلم» (ص 261).

وعن مشروعه الفكرى يقول بعنوان «ملامح مشروعى الفكرى»:

«باختصار، يدور هذا المشروع حول العلاقة بين العلم والفلسفة والدين، وكيف أن هذه الثلاثية تصل بالإنسان إلى خالقه عز وجل، ومن ثم فالعلاقة بين هذه الثلاثة علاقة تكاملية وليست تعارضية ولا حتى جدلية. كذلك إذا كان القرآن هو «كتاب الله المسطور». فالوجود هو «كتاب الله المنظور» وعلينا أن نتعلم قراءته لندرك من خلاله أدلة الوجود الإلهى والتوحيد، وما يسر الله أن نطلع عليه من أسمائه الحسنى وصفاته العلى. ويهدف هذا المشروع إلى هدف رئيس، وهو تجديد الفكر الدينى، بعد أن أصبح عاجزًا عن ملاحقة العصر، كما يهدف إلى تجديد الفكر العلمى..... ويتفاعل هذان المشروعان التجديديان ليحققا المنهج الإسلامى الأصيل فى الدعوة والذى يتماشى مع هذا العصر ويتجاوب مع وعد الله عز وجل ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ (سورة فصلت).

هكذا كان هذا البرنامج نافذة أطل منها على العلم والفكر والدين، ونقدم من خلاله صورة لمفكرين ومبدعين وفلاسفة كان أول المستفيدين منها بحق هو شخصى المتواضع، لذا فقد أتحمل المشاق فى الوصول إلى هذه العقول الكبيرة التى سأنشر فكرهم قريبًا، بعد الانتهاء من عرض تاريخ هذه النقوش على أحجار حياتى من خلال هذا الكتاب، الذى أتمنى أن يكون إضافة إلى السير الذاتية التى تعرض للإنسان الذى كرمه الله ويجب أن يكرم نفسه بالأخلاق القويمة والسيرة الحسنة والإحسان فى كل شىء.